خليل الهنداوي

فرانزليست

اقرأ ٨٢

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٨٢ — سبتمبر سنة ١٩٤٩



١

فى قرية « ريدنغ » المجرية ، التى تنعم بالسكون الأنيس ، والظلال القصيرة ولد « فرانز ليست » . ولكن هذه الطبيعة كأنها لم يكن لها أثر فى جسده الهزيل . لقد كان هشّ العظام ، دقيق البنية ، حار المجس . ليس بينه وبين الحياة إلا صلة شعرة ، وليس بينه وبين الموت إلا أقصر منها ، حتى قطع أبواه الأمل من حياته مراراً ، وانتظرا موته بين اللحظة واللحظة ، وأعدّا له النعش الذى يضم جثمانه ، ولكنه سلم . وكان أكثر ما يشغل الوالد من ابنه أن يرى أنامله سبطة ممدودة لتستطيع التنقل والسيطرة على أصابع البيان . وكان لذلك يواصل العزف من صباحه إلى مسائه . ويذكرون أنه بينما كان يعزف قطعة كثيرة الحركات قصرت يده عن حركة منها ، فمد أنفه ينقر به البيان .

وما كان أكثر الجدل الذى ينشأ بين أبيه وأمه حول المستقبل الذى يريدانه لولدهما . فهذا أبوه يريد أن يلقنه الموسيقى لأنها

لا تتعبه . والموسيقى هى المهنة التى أرادها الأب يوماً لنفسه وأخفق فيها . وهذه أمه تخشى بريق عينيه حين يتناول القيثارة . وهذا هو الولد ينقل طرفه بين صورة العذراء المعلقة على الجدار ، وصورة « موزارت » تحف بها الآلات الموسيقية .

وإذا كان كثيرون من العظماء مدينين بعبقريتهم لأمهاتهم ، فإن أم ليست كانت تقول لأبيه الطامح إلى بناء مستقبل ابنه الموسيقى :

ــ إنك تحلم كثيراً . إنه ليست له عبقرية موهوبة . إنه ولد عصبى فقط . وإن مطمعى الوحيد أن أرى خديه يتوهجان حمرة . ونفسه تخلد إلى السكون .

ــ ها هم أولاء النَّور ! ... ها هم أولاء النَّور ... !

وما النور إلا فئة من الناس ألفوا نوعاً بوهيمياً من الحياة . وجعلوا دأبهم التنقل من مكان إلى مكان : يلبسون الأردية المزركشة المحلاة بالمزق الغريبة الملونة كأنها تزاويق الربيع .

هؤلاء هم النَّور ، يخترقون الطريق ، تعلن معازفهم وأغانيهم عن مقدمهم . وكانت ظلال كثيفة من الغيوم المتلبدة تمنع الشمس أن تصل إلى السهول المتموجة بالسنابل . اقتربوا من

القرية بخيلهم التي تبرق على أعناقها اللجم الفضية . عليها نساء أرخين العقود على النهود ، ورجال توشحوا بالزنانير الحمر ، وكلاهم تملأ الأجواء عواء .

رأت الأم هذا المشهد فأهابت بولدها :

ـ ادخل يا ليست !

لكن ليست توسل إليها :

ـ دعيني أسمعهم قليلا .

وقف النَّور رويداً ، وأخذ أحدهم يعزف مرة عزفاً شجياً ، ومرة عزفاً رخياً ، وأخرى عزفاً عنيفاً مرقصاً . والآخرون يرقصون ، ويتمايلون على عزفه . والمتفرجون مذهولون بألحانهم ورقصتهم . لأنهم لا يرون في هذه الجماعة البوهيمية ـ إلا شعراً فاتناً وموسيقى هائمة .

هتف الصغير بأمه :

ـ آه ! ما أجمل هذا !

أجابته أمه :

ـ ولكن ... لا ! ادخل ! إنهم يريدون أن يعسكروا . إنهم يسرقون ما تقع عليه أيديهم ، حتى الصغار .

ولكن فتاة نورية انفصلت عن رهطها وأقبلت على الأم :

– هل تريد سيدتى أن تشترى حلياً ، أو طوالع الحظ ، أو تريد أن أنبئها عن المستقبل ؟ هات يدك يا صغيرى ! لا تخف ! مدّ يدك ! إننى أعرف المستقبل ، وأحسن التنبؤ به . اسمع !

مد الصغير يده ، ولكن الأم جذبتها ناهرة وليدها .

– تعال ! لا يجوز أن تعتقد بأوهام الساحرات .

• • •

لم يكن بيت ليست بالبيت الفخم فى القرية ، وإنما هو بيت صغير ، تحيط به بعض شجرات قميئة ، خلالها بئر ماء تمد فى حياة البستان ، ثم سياج يفصل البيت عن الطريق .

كان من عادة ليست إذا تغيب أن ينتظره والداه فى ساحة القرية ، فإذا لم يجداه عاودهما القلق عليه ، فيتجهان نحو البيت ، فيثب إليهما من النافذة المفتوحة عزف متواصل .

فتقول الأم :

– يا له من ولد عنود !

ويتساءل الأب :

– ماذا يعزف ؟ إنه لا ينقل عن « موزارت » ولا عن

« هايدك » . على أنه يكاد يشبههما فى عزفه . إننى أعرف القطع المسجلة عندى كلها . أما هذا العزف الذى أسمعه فهو عزف غريب مجهول . من أين هذا العزف ؟

حقاً لقد كانت القطعة التى يعزفها كأنها تطير على أجنحة بإيقاع لذيذ ، وجمل ذات أهواء عاصفة .

وقف الأب والأم ذاهلين حائرين فى خطب العازف . وأخيراً كانت المفاجأة . إنه ليست الصغير ، تنقر أنامله أنامل البيان ، بدون أوراق ولا ألحان . وقفت الأم مشدوهة بين الأب والابن ، وفى عينها دمعة إعجاب . لأنها دمعة عبرت عما تحسه الأم فجأة من عبقرية مكنونة فى ولدها تريد أن تتفتح . هل هنالك « موزارت » ثان يريد أن يظهر ؟

قالت الأم :

– إننى بتُّ أخشى عليه !

أجابها الأب :

– لا يا حنة ! إن الله أراد هكذا . هو الذى أعطاه العبقرية. وهو لن يتركه ، أو يحرمه نصيبها المقدر منها .

وفجأة لمح الولد أمه وأباه ، فصاح :

– أبى ، أمى !

وكان الظلام يتراخى على الأشياء . وليست لا يرى إلا أباه وأمه مجهشين فى البكاء .

• • •

وسرعان ما ذاع شأن ليست العازف الصغير . فكان الناس يأتون من البيوت القريبة والبعيدة ليسمعوه . وكان أهل القرية يجتمعون تحت النوافذ ليصغوا إلى عزفه .

وكان أول شأنه فى العزف أن البارون « فون براون » – وهو أعمى كان يرجو العزاء فى الموسيقى – قد أقام حفلة فى « أدنبرغ » . وبالرغم من بعد المدينة عن القرية اصطحب الوالدان ليست معهما . فكان الصغير – قبل ميعاد العزف – عرضة لحمى شديدة انتابته . حتى إذا اقتربت ساعة العزف استعاد نشاطه وطبيعته ، وصعد بخطوة ثابتة . فراحت أعناق المتفرجين تتطاول ، والعيون تتداور لتستطلع هذا الصغير الذى يواريه البيان عن الأنظار ، وسيدات الحفل وراء مراوحهن المزخرفة يتهامسن :

– يا له من شاحب اللون !

- إن له أنامل سبطة .

- إنه يستخدم أصابعه كرجل .

- ما أصفى عينيه !

- وماذا يريد أن يعزف ؟

- إنه بدأ ... إن هذا لشيء عجيب .

كان عزفه عجيباً فتن السامعين . ولما انتهى صفق الناس له بحماسة . وتوافدوا على الأبواب لتحيته . لكنه انسل سريعاً ولم يقف .

• • •

قال الأب ، في مساء يوم لزوجته حنة :

- إن عندى نبأ خطيراً . إننا سنسافر .

- إلى أين ؟

- إلى ڤيينا .

وكانت ڤيينا كعبة الموسيقى السامية .

- وحالك أنت ؟

- لا أريد شيئاً . إن حياتنا كلها ينبغي لنا أن نضحى بها من أجل صغيرنا . إنه سيعزف هنالك .

صاح الصغير ، وعيناه تلتمعان فرحاً :

– إلى ڤيينا حيث أتلقى دروساً عالية ؟ إن فيها من ضروب الموسيقى ما أتمناه .

أما الأم فقد تولاها الدهش

– هل أضعت رشدك ؟ أنترك بيتنا وأثاثنا ؟

– إننا سنبيعه .

– وردائى الخاص ؟

– سأشترى لك ما تريدين عوضاً عنه .

– ودجاجنا وأرانبنا ؟

– تباع أو تهدى ...

تلك ليلة محسوبة فى عمر ليست . لأنها وجهته نحو الحياة التى طالما تمناها .

وفى ڤيينا قاد الأب ولده إلى الأستاذ الموسيقى « زرنى » فامتحنه امتحاناً بدهياً ، فأعجب به ، وافتتن بمواهبه على رغم أنه لم يتجاوز التاسعة من العمر . وكم كانت دهشته فائقة حين أخذ يعزف قطعة لبيتهوفن ! فكانت أولى وصاياه له أن يكون تلميذاً نجيباً .

بعد قليل كتبت الصحف فى ڤيينا أن التلميذ الصغير سيعزف على المسرح . وقد أنبأ الوالد ابنه أن بيتهوڤن قد يشهد الحفلة ليستمع إلى عزفه .

— هل يأتى بيتهوفن يا أبى ؟

— سأطلب إليه أن يأتى . لكنه رجل قاس ، أخو جفوة ، فيه من الإنس وحشة ، يحب الاعتزال . إن الرجل العظيم أصم . آه لو رأيت وجهه الصارم ! أخشى أن ترى على وجهه سوء ظنه بك . على أن بيننا وبينه موعداً بعد الظهيرة .

لقد كان الرجل العظيم فى رداء يدل على فقره وقسوته . وقد أخذ الصغير يعزف إحدى قطعه أمامه . ولبث بيتهوفن جامد الحركة ، خافض الرأس ، تلحق عيناه أنامل الصغير المتنقلة على أنامل البيان . حتى إذا انتهى لم يزد بيتهوڤن على أن قال :

— دور حسن منه . متى يعزف قطعته الخاصة ؟

عين الأب له موعد ذلك . فهزّ بيتهوفن رأسه ، ثم أغلق عينيه ، وانتهى كل شىء فى هذا اللقاء .

وفى ليلة العزف شاهد أهل ڤيينا رجلاً غريب اللباس والأطوار ،

يجلس فى المقعد الأول دون أن يُحيِّى أحداً . ولكنه – فى أثناء عزف الصغير – قد صفق إعجاباً به . وحين الانتهاء ارتقى هذا الرجل مدرج العزف باسطاً يديه القويتين ، وحمل الصغير بذراعيه ، وقبله فى جبينه ، ثم غادر المكان ، وانسل بخطى وئيدة ثقيلة . ولم يكن هذا الرجل الغريب إلا الرب الأكبر للموسيقى ... هو بيتهوفن .

ملّ الصغير جوّ فيينا الأرستقراطى المحدود . وعاج نحو باريس المدينة التى كانت محط الموسيقيين والفنانين ، كأنه لم يرض بفيينا موطناً بعد ما ضحى أبوه ببيته وحياته من أجله . وكان كل مطمعه أن يدرس فى معهدها الموسيقىّ الذى يعجل له الوصول إلى قمة المجد ... وما كانت هذه الرحلة لتلقى عناداً أو تأجيلا ، بل ما كان أقرب باريس من ليست ! وما أقرب ليست من باريس !

وفى صبيحة الوصول إلى باريس دخل ليست وأبوه على مدير المعهد الموسيقى « شوربينى » ، فكان وراء مكتبه ينتظرهما كقاض وراء منصة الحكم . فقدما له ما يحملان من توصية بهما من أمير « فيينا » فرحب بهما ، ثم قال :

– ماذا تنتظران منى ؟

قال الأب :

– إن ولدى يحسن العزف على البيان . وهو يرجو أن يؤتى حظ الدخول فى المعهد .

– ذلك مستحيل .

– ماذا تقول ؟

– أكرر لك القول : إنه مستحيل لأنه غريب الجنسية .

– ولكنك ستساعده لو سمعته !

ولم تفد المحاولات شيئاً فى انتساب الصغير إلى المعهد . ولكن شأنه نبه فى پاريس . حتى أصبحت پاريس كلها تطلبه إلى حفلاتها ونواديها حتى غدا عبقرية من عبقرياتها ، وهو لما يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، فأعطاه ذلك قوة ونشاطاً .

والذى يطالع مذكراته الأولى يقرأ هذه السطور : « إن نفسى تصعد وتحلق فى النور . قلبى مفعم يطفح بالسعادة والقوة. آه ! إننى أحيا ، إننى قوى فوق القوة . بعد قليل يرتل المصلون نشيد البعث ، أما أنا فسأرتل من أعماق نفسى نشيد مبعث قلبى ... إن قلبى يحيا من جديد . إن قلبى قوى ! »

• • •

٢

ــ أبتاه ! لا أريد أن أكون كلباً عالماً . هاأناذا فى الخامسة عشرة من عمرى . هذه الحياة التى أحياها أجدها ثقيلة الأعباء علىّ . إن غايتك كلها أن تجعل منى فناناً ، لاشيئاً صغيراً . لكن هذه النفثات من الكبرياء توحى إلىّ بالازدراء . إن ربى يدعونى . سأكرس له حياتى .

سمع الأب هذه الكلمات ، فتولاه ذعر اليأس والخيبة . ماذا ؟ أليس هو الذى ضحى بكل شىء من أجل ولده ؟ من أجل مجد ليست ؟ والآن يريد أن يخونه فى منتصف الطريق !

ــ لا لا . يا ولدى ! ليس هذا بجد منك !

ترامى الولد بين ذراعى أبيه ، وهو يجهش فى البكاء ، ثم رفع وجهه الندى ، تلمع فيه عينان زرقاوان ، تعبران أصدق تعبير عن مدى تلك الوحشة التى انصبت عليه ، ولونته بألوان عميقة .

ــ أبى ! إن كل هذه المظاهر التى أراها تزيدنى تعباً ومللا . والنقاد فى حمقهم وغباوتهم كالذين يكتبون لهم . إننى لن أجد

الراحة الكاملة إلا فى العودة إلى الله . وإلى الله وحده أطلب هذا السلام الذى ضن علىّ به العالم .

بعد سنوات معدودة أخذ الأب يرى على ابنه إيحاءات خفية تدل على مرض نفسى فيه . فالفتى كلما أيفع زاد إيغالا فى هذه التأملات الخاطفة والرؤى التى تتركه — حين يستيقظ — غارقاً فى العرق . فيقصّ فى الصباح ما رآه فى الليل ، من قديس أراه طريق السماء مفروشاً بالأشواك والحجارة ، لكنه طريق يفضى إلى راحة النفس وخلود النعيم ، ومن ملائكة يرافقونه دون الناس . وكان إذا مر بكنيسة عاج عليها ، وصلى فى محاريبها ، وانحنى على ترابها ، وقبل الصلبان فيها . وأسف على أنه لم يكن فى العصر الذى كان فيه من الشهداء .

وأخذ الأب يوماً يجادل ولده بطريقة عقلية .

— ولدى ! حقًّا إنك تتصل بالله . ولكنك تتصل أيضاً بالفن.

— لا ... ولكنى أريد أن أكون كاهناً .

— إنك كاهن الجمال ، وهذا فضل كبير منّ الله به عليك . التأمل فى الجمال هو صلاة . ابتكار الآثار العالية مما يرفع النفوس إلى الأعالى . إن مهنتك وقّعت عليها يد الله مع المواهب

التى انطبعت فيك ، فليس من حقك أن تهملها .

أخفى ليست وجهه الذى طفح عليه التأثر بيديه . وتوالت منه شهقات مصحوبة بالبكاء . فعانق الأب ولده برفق .

– لا لا ... تشجع ! إن الله هو الذى أراد أن تكون على الأرض لتقوم بالرسالة التى اصطفاك للقيام بها . إن ما تزعمه يأتيك من وحى دينى ما هو إلا ثورة وقلق . إنه وسواس شيطان . فهل هو يا ترى شيطان الكبر الذى يدفعك حين يحدثك عن التواضع ؟

همد الفتى قليلا ، وكأن هذه الكلمات أصابت وتراً حساساً فى قلبه .

– سأطيعك يا أبى مفتخراً بأننى آلة من آلات الجمال الإلهى .

وُبعيد هذه الأزمة شرع ليست يؤلف ألحانه الجديدة . ولا يفكر إلا فى أن يبتكر . وبدأ يشعر بأن لذة الإبداع تفوق لذة النقل .

ألا إن المؤلف المبدع يستيقظ فى حنايا نفسه !

• • •

هنالك فتاة غسّالة أوتيت جمالا فاتناً، وعينين أشربتا خضرة فى زرقة ، إذا رأت ليست على البيان مالت عليه مأخوذة بعزفه. ووقف هو مبهوتاً بها . وفى يوم من أيام الحر اللاهب وقفت مائلة الرأس ، ذابلة العين ، وهو ممعن فى عزفه . صاحت به حين انتهى صيحة الشعور المخنوق :

– ما أشد وهج النور على العيون ! أرخ الستائر يا ليست ... واقترب منى !

ترامى الأثنان فى غفوة ذابلة ، بعيدين عن كل مرصد ، ما راعهما إلا أن يُفتح الباب عليهما فجأة ، وهما متعانقان .

ذلك هو الأب يُهيب :

– من الفتاة ؟

وراحت الفتاة تنسل على خوف واستحياء ، ثم التفت إلى ولده مغاضباً

– ألا تستحيى ؟

– اصفح عنى يا أبى ! لقد كنت كالذاهل عن نفسى .

– أنت يا ولدى كائن شديد الإحساس . ولكنى أخشى عليك المرأة ، إن النساء يقلقن حياتك ، ويعبثن بك .

انقطعت الفتاة عن زيارته ، ولكنه كان يراها فى مواعيد خفية ، وإنه ليشعر بالإثم الذى يتولاه حين يروح يتبع هذه الطرق المعوجة فى استجابة داعى اللذة . وطالما تنازعت فى صدره عوامل التقوى الدفينة واللذة الأثيمة . وبينا هو يتفانى ضنى على صدر تلك الفتاة الجميلة تراه يتفانى توبة متسلماً إلى التقوى .

قال له أبوه :

– إنك متعب جداً يا ولدى ! إنك فى حاجة إلى الراحة . سنذهب إلى شمال فرنسا ، حيث هواء البحر يكسبك الروح ، ويرد عليك العافية .

وما هى إلا خطرة حتى رحلوا ، فبلغوا البحر . وسرعان ما همدت الحدة العصبية فى نفس الصغير .

فى إحدى الأماسى أحسّ الوالد رعشة برد تسرى فى أعضائه ، فتدثر ، فانتهت الرعشة إلى حمى عنيفة تؤلم بدنه كله . لم تغن الوسائل المختلفة شيئاً فى تخفيف الحمى عنه وتسكين الألم . وفى ليلة ٢٧ آب (أغسطس) من عام ١٨٢٧ حين كان ليست يتأمل فى الشعاع المرتجف على أديم الماء

سمع نقرات صماء تتوالى على النافذة .

تساءل الأب المريض :

– ماذا أسمع ؟

– لا تقلق يا أبى ! إن الغربان تضرب الزجاج .

وكان نقر مناقيرها ومخالبها لا يزال متواصلا .

– أزحها يا ليست ! يا صغيرى !

فتح الولد النافذة ، وأخذ يضربها بجمع يده . وهو يرى على نور النهار الباهت كيف تنطح الغربان زجاج النافذة .

– تعال يا ولدى ! اقترب منى ! إننى أحس أنك ستفقدنى.

– أبى !

– أشعر بذلك . استمع إلىّ ! أمك كن عاطفاً مشفقاً عليها ! وأما أنت فتذكر ما قلته لك : خذ حذرك من النساء ! إنهن ربما أودين بك ، وقتلن عبقريتك ، وجعلن حياتك جحيما .

ركع ليست على سرير أبيه المحتضر ، وتناول يده يقبلها . وفى ذلك النهار نفسه ، بين رجاء الولد ويأسه ، وخوف الأب وذهوله ، لفظ نفسه الأخير .

• • •

٣

عاد ليست وحده إلى پاريس ، يحمل فى جنبه هذا الجرح الدامى . وفيها لقى أمه العائدة من « ڤيينا » ، فكان لقاؤهما مأتماً جديداً ، ومبعثاً للألم . وتوالت عليهما الليالى مبطنة بالكآبة ، متشحة بالسواد . ولكن هذا الحزن المستمر زاد فى تضييق أسباب العيش عليهما ، لأنهما ظلا بدون عائل ولا معين . فالتفتت الأم إلى ابنها السادر فى همه ، المنعزل فى غرفة أمله . ونبهته إلى الحرمان الذى يهدد حياتهما ، والفاقة التى تخيِّم عليهما . فأدرك أن أمه تدعوه إلى أن ينفض عنه هذا الذهول ، وتستحثه على العمل من أجل الحياة . فوعدها بالسعادة القريبة ، والخروج من هذا المأزق سريعاً ، فبدأ يعزف فى النوادى العامة ، ويكسب المال الذى يكفل لهما العيش . فكان مصابه بأبيه أول درس له جعله يحسّ برجولته ، ويعوّل على نفسه برًّا بها وبأمه الأيِّم .

عرضت عليه الكونتس « سان جريك » زوجة وزير التجارة أن يزورها ، ويخص ابنتها « كارولين » بدروس موسيقية . فأجابها

– إنك تستطيعين أن تثق بى !

ودخل بينها ، فقالت له الكونتس :

– إن صحتى متعبة ؛ ولذلك اضطر أن أقضى سحابة أيامى على هذا الكرسى الممدود . وستبقى أنت وكارواين معاً !

– أكرر لك مؤكداً أنك تستطيعين الاعتماد علىّ كأستاذ لابنتك .

ودخلت عليهما فتاة يتألق على وجهها نور الصبا ، وفى عينيها فتور ذابل .

– هذه هى تلميذتك يا ليست !

تلقاها ليست بترحاب ، بينما راحت عينه تتأملها – فى كرة واحدة – بجميع أجزائها .

برزت كارولين فى الدرس الأول فتانة نضيرة الصبا ، واستوت على معزفها ، وغير بعيد عنها أستاذها الجديد . فكان الوجهان يكادان يتلامسان على أنامل البيان .

– اعزفى يا آنسة بتمهل ! تخيلى منظراً فى الطبيعة ! اعزفى هذا المقطع كأنك تسرحين على ضفاف بحيرة . تصورى مالك الحزين يرف فوقك . وبعيداً جداً يلوح قصر بخرائبه المطلة .

كانت كارولين تبسم لهؤلاء الملائكة الذين تتخيلهم حين تعزف . وتلتفت إلى ليست بوجه وردى ، وعينين غارقتين فى لون بنفسجى . فتراه بجسده المستقيم ، ووجهه الأنثوى كطفل إلهى ، يتموج شعره الأشقر مسدلا على كتفيه .

ـ أو لم تحسى بتعب ؟

ـ بلى ، قليلا .

ـ لنسترح إذاً !

فيستريحان ، فى حين يدخل عليهما من النافذة المجاورة للبستان عبق الأزهار.

ـ ألا تريدين الذهاب إلى مشهد تمثيلى ؟

ـ لا ... إلا المشاهد الإيطالية ! لأن غيرها لا أفهم لغة أصحابها .

ـ ألا تحلو لك المطالعة فى البيت ؟

ـ نعم ، وبخاصة آثار « برناردين دى سانت پيار » صاحب « بول وفرجينى » ، التى ترفع النفس . وعبقرية النصرانية « لشاتوبريان » . آه ما أجمل هذا كله !

. . . .

قالت كارولين لليست يوماً

– هنا خزانة ؛ هل تراها ؟ وراء هذا الستر الحريرى كتب ، لاتجد القفل عليها دائماً ، ولكنها ممنوعة علىّ . وما أشد خوفى واضطرابى حين أهم بتناولها .

– وأخيراً ؟

– تناولت كتاباً للافونتين . لا شعره القصصى الحكمى . قرأت قليلا ، ولكنى سرعان ما أخفيته حين سمعتُ حركة فى المنزل .

– وما عسى أوحت إليك هذه القراءة ؟

– آه ! إنها ولدت فىّ الرغبة ، وتمنيتُ لو قدرت أن أسيح فى هذه المدن التى وصفها لافونتين فى أطراف البلاد . من نابولى إلى ڤيينا ، إلى التطواف فى الجندول تحت أشعة القمر الناعسة ، والتجوال مع البدو فى الصحراء على خطى الجمال فى قلب القافلة ، أو إلى استرواح عبير الشرق الزكى ! وتمنيت لو يقدر لى أن أحيا فى عصر أهل القصور الفخمة . إن ذلك لجميل ، وجميل جداً .

كانت كارولين تتكلم بلهفة وعاطفة . وكانت تعتبر هذه

الاعترافات ضرباً من الإثم يلحق بها ، حتى وارت وجهها بيديها مراراً ، لتمنع عينها أن تقع على عين ليست الذى أحس بقلقها النفسى ، وشوقها المكبوت المتشوف إلى مجالى الحياة الطلقة .

ـ لا ... لا . إن يد الله الكائن فى هذه الأكوان كلها تقودك على هذه الطرق من الجمال والشعر .

ـ قد يكون ذلك ! ولكن الزواج ، وأن أكون أمًّا لأولاد أربيهم تربية مسيحية ، هو كل مثلى فى هذه الحياة . ولكنى ، مع هذا ، أجد أحلامى بعيدة .

بمثل هذه الأحاديث ، وهذه الأحلام المضطربة كانت دروس الموسيقى تنقضى ...

كان ليست يوم يغدو إلى لقاء كارولين يُعنَى بزيه ، ويرتب حالته ، كأنما يضفى على جماله جمالا ، وعلى فتنته فتنة . وأنّى لكارولين أن تقاوم هذا الفاتك العربيد ! ... وكان يجلس للعزف ، فينتقى لتلميذته القطع المثيرة التى تعصف بالعاطفة إذا لمستها ، والنفس إذا أحستها . ولا يدرى إلا الله ما تتركه من أثر وشبوب فى نفوس الغانيات . فكانت كارولين تعزف حيناً ،

وحيناً تصغى إلى أنامل فتاها المتموجة ، فتموج عواطفها فى صدرها ، ولا تدرى كيف تتقى مقاتلها ! ومن كان مثل ليست رهافة فى الذوق ، ولطافة فى التعبير ، لا يُعييه أن يمزج اليأس بالرجاء ، والهناء بالشقاء ، حتى يكون من هذا كله لحنٌ يستبد بالنفس . وكان يعمد أحياناً إلى أن يدعوها للقراءة دفعاً للسآمة . ولكن ما تقرؤه لا يزيدها إلا تنهداً .

فى مساء ما قدم ليست لتلميذته خاتماً نقش عليه شعاراً له ، ففقدت صوابها من التأثر ، فأحنت رأسها ، وتمتمت له بكلمات رقيقة : « هل تشعر يا فتاى بأننى أحبك ؟ » فهصر قامتها . وشدها شداً عنيفاً ، وهى مستسلمة بين ذراعيه ، صفراء ، شاحبة اللون ، تقول له :

– إنك آلمتنى !

فطرحها على مقعد عريض ، وأخذ يناجيها بلغة رقيقة ، ضارعاً متوسلا ، حتى ابتسمت ، وصفحت .

– إنك تحبيننى يا كارولين ! إننى أعرف ذلك ، وأراه ، وأحسه بكل قلبى . إنك تحبيننى . ولكن أولئك الأغبياء يريدون أن يقصوك عنى : عن الرجل الوحيد الذى يفهمك .

يا لله لفتاة بائسة ! اذهبي واخضعي لشريعتهم القاسية ! وامنحى نفسك للزوج الذى فرضوه عليك ! واقتلى معه أيامك ولياليك ، وعاندى إرادتك ، واخدعى نفسك باللفظ الجامد ، والكذب المموّه . ولكنك لن تسلمى إليهم نفسك ، لأن نفسك لى وحدى ... إننى سأملكها برغم الناس ، وبرغم القدر ، وبرغم نفسك ذاتها . نعم ، إننى لن أراك ، ولكنك ستكونين لى إلى الأبد . والآن وداعاً ...

وبينا راحت الساعة تعلن — بدقاتها الاثنى عشرة — نصف الليل ، عاد والد كارولين من عمله ، فراعه أن يرى النور ساطعاً فى حجرة ابنته ، فدفع الباب ، ووجدهما ...

— يا سيد ليست ! أظن أن عزف الموسيقى أضلك عن عزف الساعة .

انتفض ليست من غفوته معتذراً. وحين هم بالانصراف التفت الأب إلى ابنته مؤنباً :

— ادخلى يا كارولين ! واعلمى أننى قررتُ أن يكون الكونت « أرتيجو » زوجك .

والتفت إلى الأستاذ الذى كان يتعثر فى مشيته :

ـ أشكرك على دروسك . وغداً تأتيك تتمة حسابك !

وكانت هذه الليلة هى الموعد الأخير ...

حقاً لقد كانت هذه النهاية آخر ما يتصوره ليست . لأنها كانت ضربة لآماله ، ونكسة لحياته الفنية . فعاوده الوسواس الدينى الذى كان يغريه فى حداثته . فراح يقضى معظم أيامه فى بيوت الله باكياً ، متقرباً من الله ، يريد أن يضحى بفنه من أجل مرضاته . وقد هم مراراً بأن يعزف عن الموسيقى لولا ما يتمثل له من وعده لأبيه الراحل. وقليلا قليلا ترك الكنيسة ، وارتد إلى بيته ليلقى أمه التى أضناها الانتظار . لكنه ظل ممتنعاً عن كسب معيشته بعزفه ، منفقاً ما اســتطاع إمساكه من قبل . فكان من جراء ذلك أن غلب عليه نوع من التشاؤم والازورار عن الحياة ، مما جعل الأم تضاعف جهودها لاستنقاذ وليدها من حالته . فكان يأبى الطعام ، ويعزف عن الشراب ، مجتزئاً بالتدخين المتواصل الذى عمل على تخدير أعصابه . بل كان يأبى أن يزور أحداً ، أو أن يستزيره أحد . فزادته هذه العزلة استيحاشاً ، وزادت أمه يأساً منه وبكاء عليه .

أإلى هذا المصير المظلم تمشى هذه العبقرية المضيئة ؟

وأخيراً ، حين أعياه النسيان عمد إلى المطالعة ، مطالعة أى كتاب كان ، وأى أديب كان . وكان أكثر ما يميل إليه قصة « رينى » لشاتوبريان ، حتى حمل نفسه على زيارة هذا الأديب الكبير إعجاباً به . فما عملت هذه الزيارة إلا على إيقاد العاطفة فى نفسه . وفى هذه المهلة فتح داره ليعلم الطلاب كدأبه . فما إن ذاع ذلك فى پاريس حتى توالت عليه الطلبات ، ومر عليه زمن كان يشكو فيه الإرهاق والتعب . كل ذلك إنما يتحمله ليقوم بشأن أمه التى لا تعرف لها عائلا سواه . ولولا هذا الواجب لشيع الدنيا ، وقدّم فنه قرباناً للسلام الإلهى غير أسف عليه .

• • •

٤

قد توقظ بعض الحوادث النفس ، وتفتح لها اتجاهاً جديداً لا تألفه . من ذلك حوادث أيام المجد فى الجمهورية الفرنسية عام ١٨٣٠ . حيث اختلط لمع الخناجر بدخان البارود . كان لهذا اليوم أثر نفسى غريب أثار وعى ليست حيث شاهد الثورة تطغى على النفوس لقلب نظم المجتمع الذى كان يشكو منه الشعب الپاريسى . وفجأة تلاشى النظام ، وامتدت الثورة ، وعلا هتاف البؤساء الذين مشوا بمظاهرات عنيفة ، يحطمون أقفال الحوانيت ، ويكسرون مشاعل الشوارع . وهم يحملون أعلام الثورة بيد ، والحجارة بيد يرشقونها هنا وهناك . فشق هذا المشهد نفس ليست ، وعصف بهـا هذا الروح العنيف الذى لم يألفه ، كأنه أعاد إلى نفسه الإيمان بمجتمع أطهر وأنقى ، حتى حمله ذلك إلى تأليف « سمفونيته الثورية » التى أهداها إلى ثوار ذلك اليوم، يعبر فيها عن أحلامه الإنسانية . ويخلط فيها بين اللين والعنف ، واليأس والأمل . إنه يفكر فى

أن الزمان الآتى ينبغى له أن يحقق السعادة لكل الناس ، إن الإنسان صالح بطبيعته ، ولذلك يجب أن يحيا سعيداً ، وإن له الحق فى أن يكون سعيداً . إن المساواة هى شريعة الطبيعة الطبيعية ، لكنها شريعة خنقها الظلم . ولكن ينبغى إحياء هذه الشريعة بأى ثمن كان .

تلك هى بعض الأحلام السامية التى كانت تساور نفس ليست الشاب . وللشباب أحلام مثالية ما كان أسماها ! لولا أنها لا تثبت للواقع والحياة ! ولكنها تبقى الحافز الأكبر لنفوس العظماء حين يثورون على واقعهم ، ويتوقون إلى عالم جديد يبنونه من أحلامهم .

اندمل جرح ليست بين جراح الحب ، وتناسى الصدمة التى كادت تزعزع كيانه ، ولكن جرح الحب لا يندمل إلا ليحل محله جرح آخر . وجراحات القلوب — فى الحب — متتالية .

بينما كان ليست يعطى أحد طلابه درساً فى الموسيقى وقع طرفه على أم هذا الطالب وهى « أديل أو الكونتس دى لاپروناريد » . فتخيل أنها امرأة سقطت عليه من أحد

الكواكب ، كانت هذه المرأة فى الثلاثين من عمرها ، فيها شوق خاص إلى الفنون والموسيقى . وكان زوجها الكهل بعيداً عن هذا التذوق . فهو يبتعد جهده عن الحفلات الموسيقية التى كانت تتعهدها بين الحين والحين ، لأنه أصم حرمته الطبيعة هذه النعمة . فوجد بذلك ليست منفذاً إلى قلب هذه المرأة التى وجدت فى فتاها الموسيقى ما يلائم رغبتها . فهى الآن ترافق هذا الموسيقى ، وتخرج معه إلى النوادى الفنية دون أن ترى فى ذلك إثماً ولا حرجاً ، حيث ترى مصورين ونحاتين يهيمون وراء مثلهم العليا فى الجمال ، وشعراء مسدلين شعورهم ينظرون إلى العالم نظرة الناقم على الحياة التى غاضت ألوانها البهيجة . وقد وضعوا وراء هذه المشاهد هيكلا عظمياً مسجى يشرف على هذه الحلقات ، فإذا كشف عنه السدل تعالى صياح الذعر ، والتوت الرءوس على الرءوس ، وتناطحت الصدور بالصدور ، وسرت فى صدر الحبيبة رعدة ، فراحت تستحث ليست على الخروج من الحلقة ، وعلى وجهها الخوف المشوب باللذة والإغراء.

• • •

لقد كاون جود هذه المرأة فى حياة ليست حادثاً حوّل حياته

كلها ، من الهدوء إلى الصخب ، من الانكماش إلى الظهور .
وأصبح لا ينقصه ما يرتب حياته على هذا النّسق الجديد .
فبيته تبدل بيتاً فخماً ، وعلى الجدران تعلقت صور رائعة .
أما أم ليست فقد خشيت على ابنهـــا هذا الاسترسال فى
الترف والإسراف . وأحست أن علاقته بهذه المرأة إنما هى علاقة
عابرة لا تستبد بقلبه . ففكرت فى أن يصبح ابنها رجلا ينعم
بزوجة وبنين ، بل ذهبت إلى أبعد من التخيل فى هذه الفكرة ،
فحدثت ابنها عنها ، فلم يُبد اعتراضاً ولا إباء . ولكنها حين
أصرت ردها رداً لطيفاً ، لأن موعد ذلك لمّا يحن بعد . وأخذ
ليست يفتش فى الحياة عن مواضيع ذات أحاسيس جديدة .
وأخذ يتساءل : ألا ينبغى للفنان أن ينعتق من النوع الإنسانى ؟
وأية عناصر من الفرح العالى يمكن أن تكون فى الانحطاط
والابتذال ؟ لقد عاشر بيوت الأفراح ليدرس الميول على الوجوه
الشاخصة فى الموائد الخضراء ، وزار السجون ليلاحظ ملامح
الذين نفوا من الحياة فى المجتمع ، ورافق الأطباء الذين يعالجون
المجانين ، والمعدنين الذين يعيشون ذاهلين عن وعيهم . وانطلق
بين المحتضرين الذين تلمع على عيونهم آخر ومضة من ومضات

الحياة . وارتعش للأنين ، واهتز للحنين .

وهو، فى كل هذا، متصل كل الاتصال بمحبوبته التى ازدادت به وجداً ، وازداد بها تعلقاً حتى أصبحا حديث كل إنسان . وما هو « إلا عاصفة الهوى تسوقهما وتتركهما مختلجين فيها » . هى عاصفة شديدة تلويهما فى دوّارة من الشقاء والفرح الذى لا يحسه الناس . هذه العاصفة ، سعداء من يذهبون فريستها ، وسعداء من سمعوا حسيسها ، وسعداء من شعروا بحفيف أجنحتها المصطفقة فوق رءوسهم .

وفى باريس اتصل ليست بصداقة وثيقة مع الموسيقيين : شوپان ، وبرليوز . فاجتمع على صعيد واحد ، پولونيا ، وفرنسا ، والمجر . أما برليوز فقد كان رجلا ذا وجه متقلص ، تحت شعر مسدل بذوائب . وحياته حياة عصبية عاصفة ، لا تستقر به حال حتى تثور به حال . وإذا كانت صداقة برليوز جعلت ليست يوغل فى الذهول العاطفى فإن صداقته لشوپان فتحت له الأجواء الموسيقية الشرقية التى تعتمد على إثارة المشاعر . وقد ترك لنا ليست كتاباً وصف فيه صورة هذا الموسيقى الپولونى ، العذب الابتسامة ، الجامع بخياله وروحه ،

الناحل بجسده ، الشاحب بلونه . واعترف له بموهبة خاصة تركت صفحة خاصة فى تاريخ الموسيقى .

ويذكر ليست فيما يذكر ليلة فى الأوپرا أحياها الموسيقى الإيطالى « پاجانينى » الذى فتن پاريس بموسيقاه . فذهب تلك الليلة ، وراح يسمع . وكان يخيل إليه كأن لحناً ينبثق من مملكة الظلام . وكان پاجانينى يظهر فى مكانه بعينين مركوزتين ثابتتين كعينى طائر انقض على فريسته ، وأنفه كالمنقار المنتصب وفمه كهوة فاغرة بدون شفتين . أخذ يعزف عزفاً لم تسمعه أذن إلا انحدرت إليه بإصغاء ، ولا نفس إلا تولاها حال من الفناء ، من عزف قاتم كأنه رقص الجماجم ، إلى عزف يستنطق أبطال الأساطير النائمة . يا له من عازف يهتز جسداً وروحاً ! ويا لها من يد تصعد وتهوى كأنها لا تصعد ولا تهوى !

لاحظ ليست هذه الحالات كلها ، وجدير بمثل ليست أن يلاحظها ، لأن عين الفنان تدرك عروج الفنان . حتى إذا خرج من هذه الحفلة خرج مخموراً مسحوراً ، لا يدرى فى أى عالم يطير !

• • •

٥

بلغ ليست الحادية والعشرين من عمره ، ولا يزال يزداد تعلقاً بفتاته . وفى عام ١٨٣٢ ، فى منتهى الخريف ، عرضت عليه أن يرافقها لقضاء شهر عند عمتها التى تسكن فى أعالى جبال الألب ، حيث يغريه مشهد الجبال المكسوة ثلجاً ، والأشجار التى أحنت العواصف هامها . وكان من الطبيعى أن تروقه هذه الدعوة التى تشرف به على أكوان جديدة . فاستشار أمه ، فشجعته ، وطلبت إليه أن يبقى هناك مايستطيع طمعاً منها فى أن تبعده عن هذا الجو الذى يقلقه ، دون أن تدرك باطن الدعوة .

فى شهر أيلول (سبتمبر) كان ركبها يتهادى على تلك المراقى الوعرة ، حتى بلغ القصر الوحشى الموعود ، فما كان أشد اغتباط ليست بهذه الطبيعة المتمردة ، المتردية رداء القوة والجلال . فكان الحبيبان يقضيان أيامهما ، متوغلين فى هذا المشهد المترامى ، أو جالسين يرشفان ، أو راقصين يعزفان . وحين

همّا بالعودة أخذ الثلج ينهمر بغزارة حتى سد الدروب ، وقطع المسالك ، واستحال على العابر العبور . فهل يجازفان بحياتهما فى الطريق المكفنة بالثلج ، أم ينتظران عودة الربيع ؟ وما أبعد الربيع !

لقد كان ليست على شىء من القلق لهذه المفاجأة ، أما الفتاة فلم يزدها ذلك إلا اغتباطاً ، لأنها ستقضى شتاء دافئاً بالقرب من حبيبها . وأخيراً أذعن ليست للقدر المكتوب . فكانت الأيام الأولى عذبة ، مجنحة الأحلام ، حلوة الواقع . ولكن متى كان السرور شيئاً لا يتأثر بالزمن ؟ ومتى خلص السرور من السأم الذى يقتله ؟ إن موجة من السأم أخذت تطغى على قلب ليست . وإن شعوراً من الانقباض جعله يتبرم بالبيت ، وبهذه الحياة الجامدة .

مضت الأيام سراعاً ، وأخذ الربيع تطل تباشيره ، والثلوج تتكشف رويداً رويداً عن المنافذ المسدودة . وما إن أمكن المرور حتى هجر البيت ، وحطم قلب فتاته ، وطوى حبها ، وأفلت كما يفلت العصفور من القفص ، يطلب الأجواء الفسيحة ، والحرية المكبوتة .

• • •

لقد كان فى باريس آفاق خاصة للفنانين ، تجمعهم على اختلاف المهنة والطريقة . وهى شبيهة بالندوات المؤتلفة . ترى فيها الرسام والنحات والموسيقى والشاعر . يجتمعون ويخوضون فى أحاديث شتى ، فيكون لهم من ذلك آفاق للابتكار والعرض .

ولعمرى لا ينفع الفنون شىء كمثل هذه الندوات .

فى إحدى الليالى التى عزف فيها ليست على البيان إحدى معزوفاته الساحرة تصدت له امرأة من علية القوم هى « الكونتس داجولت » ودعته إلى زيارتها فى بيتها . وهى امرأة متزوجة من زوج ثرى أرستقراطى كان يكبرها بخمسة وعشرين عاماً ، على ما اتصفا به من مزاج مختلف ، وطموح متباين . هو رجل سياسة وجد ورياضة ، وهى امرأة ذوق وفن وموسيقى .

جاءها ليست فى الموعد المضروب . فرحبت به لا ترحيباً برجل زائر عابر ، وإنما برجل فنان له شخصيته المستقلة . واجتمعت عليه فتيات مولعات بالفن . فكان ليست غاية موضوعهن . وكن يأملن أن يعزف لهن . لكنه لبث صامتاً فى موضعه كأنه لم يكن لينتظر أن يدعى إلى مجتمع ، بعد أن كانت الدعوة إليها

وحدها . وكأن الكونتس أدركت ما غشيه من وجوم وحيرة ، فرجته حين ودعته أن يأتيها غداً ، لأنها ستكون وحدها .

وهكذا كان ... كانت تنتظره فى البهو الموسيقى الذى أسدلت عليه ستائر رقيقة تجعله بين المنير والمظلم . وعلى جدرانه وأرائكه تماثيل فنية ، وتزاويق تثير الروح الفنية . جلس ليست بوجهه العالى ، وعنقه المتطاولة ذى الخطوط المتناسقة ، وحركاته المتناسبة ، والبساطة المقرونة إلى الرفعة والزهو . وجلست أمامه تحدثه عن الجو الثقيل الذى تحيا فيه ، حتى لكأن وجودها فراغ لا يملؤه شىء . فاستغرب ليست هذه الشكوى من محدثته ، وهى التى تستطيع أن تشترى كل ملذة ... ولكنها كانت ملذات رتيبة لا تتبدل . ومتى عَلَتْ الحياة رتيبة النغمات ؟ إنها تريد المسرح والرحلات والنوادى ، إنها تريد أن تتذوق الحياة بكل ما فيها من رغائب . إن لها أولاداً تتسلى بهم ، وإن لها نادياً يضم رجالا مختلفين . ولكن ما أكثر ما يكون هؤلاء الرجال — بأحاديثهم الفارغة — سبباً للملالة ! إذاً ، ماذا تريد من الحياة؟ إنها تريد فناناً تربط مصيرها بمجده . ولكن كيف يأتى هذا المصير بعد أن عين لها القدر موضعها فى الحياة ؟ لتتقبل إذاً

حظها المكتوب ! ولتتحمل مصيرها المفروض ! ولكن هل يمنع هذا المصير أن تربطها ، بفنان مثل ليست ، علائق الفن والصداقة ؟ ليكن ليست ذلك الصديق الفنان الذى يزورها ويخفف عنها بعض ما تشعر به من سأم ! وليكن ليست ذلك الموسيقى الذى يعزف لها المقاطيع الخالدة شأن غيره من عباقرة الموسيقيين . هل يضيره هذا شيئاً ؟

جلس إلى البيان ، وقد تملكه شعور غريب سام لم يعهده من قبل ، ولما يعهده من بعد . وراح يعزف مقطوعة يزدحم فيها عالم مكتظ بأناسه وأزيائه وعاداته ومدنه الغريبة . وعلى البيان قد أسندت الكونتس مرفقها مسترسلة إلى تلك الأحلام التى تهدهدها حيناً ، وتعصف بها حيناً . وهى تتأمل خلال ذلك وجه العازف المشرق الأنيس ، وما يحمل من تعابير غامضة واضحة ، وعينيه الزرقاوين اللتين تسامتا عن حقارة العالم ، واتجهتا إلى عالم الجمال . وقد أدركت أنها لم تحس يوماً مثل ما عاودها اليوم . ولم تعرف مثل هذا الاضطراب فى إحساسها الحى . وقد كانت مرهفة الذوق للموسيقى ، تدرك ما تصور ألحانها ، وما تنبئ أصواتها . ولذلك كانت هائمة فى السماع

وفى التذوق ، حتى إذا ما انتهى كانت كتمثال جامد صامت يريد أن يتكلم ، وليس بقادر على الكلام . وكان هو راسياً فى مكانه يتأمل سمات هذا التمثال العجيب .

لقد ظلت الشفاه صامتة ، وأما العيون فلم تكف عن الكلام !

هذا حب جديد نما على أطلال الحب الغابر . لكنه نما عنيفاً . وصاحبته ظروف تزيد من قوته وعنفه على القلبين . فهما ، إذا تجاورا شربا كأس الهوى دهاقاً ، وإذا افترقا تركا للبراع يعبر عن هذا الهوى المستعر . ولذلك كثرت الرسالات والبطاقات بين الحبيبين . وكلها مطبوع بطابع الحب العاطفى .

ها هى ذى تكتب إليه حين كانت بعيدة عن پاريس : « إنك — هنا — دائماً ! أراك فى كل مشاهد حياتى أمامى . حين تمشطنى الماشطة أرى جبينى لأنك تحبه . أذكرك حين أجلس على جذع شجرة ، أو على مقعد حجرى ، أتحدث مع القرويين ، وأتمتع بأحاديثهم الساذجة ، لأنى أتمثل سرورك حين كنت تسمعهم » .

وليست لم يكن بأقل منها شغفاً . فهو يكتب إليها حين آبت إلى پاريس فى الخريف ، وقد أقعده المرض عن لقائها :

« ليس لى سواك يعطينى الحياة . ما أخيب أملى إذ لا أراك الآن . اكتبى إلىّ ! حدثينى عن أمس ! عن تلك الليلة ! كيف كانت غدائرك ؟ هل رقصت ؟ أين غدوت ؟ حدثينى عن كل هذا ! »

فتجيبه :

— « إننى وحدى ، وحدى . لا يرافقنى إلا فكرة كبيرة ، هذه الفكرة هى ... أنتَ . أنت الذى أراه عظيما أميناً ، أتعزى بهعن أيامى السابقة . لا أستطيع أن أقول لك شيئاً لم تفكر فيه من قبل ... إنك تعرف أنى أحبك من أعماق نفسى . »

وكان من أثر هذا الحب العميق أن قص ليست على فتاته أنبـــاء حبه الأول ، حبه لكارولين . وعلاقته مع أديل . إنه لم يكن إلا طفلا غراً مع الأولى ، وفتى جباناً بائساً مع الثانية . أما معها ، فإنه يشعر بأنه رجل كامل . وإنه ليعبر عن حبه الأخير بكتابه هذا :

« دعينى أذرف الدمع على ركبتيك ! إن رأسى يكاد يشتعل . ما أحوجنى إلى يدك تمر على جبينى ، وتغوص فى شعرى ! إننى لا أسمع . ولا أحس ، ولا أرى الأشجار التى تخفق ،

ولا الناس الذين يعبرون ويموجون ، ولا السماء ... السماء نفسها ! إنها صافية بدون غيوم! يا للسخرية! ويا لليأس ، ويا للغموض! إننا لن نحيا أبداً ، ولا نعرف ما هو الموت ؟ لنسكت إذاً ! وليعبد أحدنا الآخر ! ولنصمت بعد ذلك أيضاً ! »

سمعت الكونتس أن فى پاريس عرّافة تستطلع مخبآت المستقبل ، وأن نبوءاتها صادقة . وما أكثر ما تميل المرأة إلى استنطاق الغيب ، واستجلاء المجهول ، ولا سيما من كانت على قلق فى حياتها وفى حبها . فانطلقت الكونتس إلى هذه العرافة ، وهى فريسة هذا الاضطراب الذى يساورها ، تؤمل أن ترى من يهديها إلى الطريق الذى ينبغى لها أن تسلكه .

ها هى ذى العرافة فى زاوية مهجورة، قد دبت إليها الكهولة ، على حجرها قطة سوداء تغط فى النوم . طلبت الكونتس إليها أن تستخرج لها فألها ...

– إن تبدلا كبيراً سيدخل على حياتك فى مدى عامين ، أو ثلاثة أعوام . وما يتراءى لك فى هذه الساعة مستحيلا سيصير ممكناً . ستبدلين وضع حياتك . وتغيرين اسمك نفسه . أما اسمك الجديد فسيكون عظيما ذائعاً ، لا فى فرنسا وحدها ،

بل فى أوربا جميعها . ستغادرين طويلا بلدك ، وستكون إيطاليا بلداً لك ثانياً ، حيث تعيشين فيها محبوبة مكرمة ، وستحبين رجلا له مقامه فى العالم ، ولاسمه ضجة بعيدة فى الأقطار . »

هذه نبوءة أذيعت فى ٢٣ حزيران (يونية) عام ١٨٣٤ .

أما ليست التقى فحين غادرته فتاته إلى پاريس فى منتهى صيف ١٨٣٤ عاوده ذلك الحنين القديم إلى العبادة ، والانقطاع إلى الله . ماذا ينتظر منها ؟ لماذا يزيد قلقه يوماً بعد يوم ؟ لماذا يحطم نفسه بهذه الآمال الكاذبة ؟ لمن يفتح قلبه ؟ ويدلى بما يساور ضميره ؟

فكر سريعاً فى صديقه الراهب « لامينى » ذى القلب الطيب ، والروح المستقيم . كان هذا الراهب يسكن فى « بريتانيا » فى قصر اختاره بين الصخور الوعرة ، والأشجار الوحشية . فلما سمع شكوى ليست دعاه إلى بيته ، لعله يجد عنده الشفاء .

قصده ليست فى بيته ، وانطرح يبكى بين ذراعيه . وفجأة زايلته أهواؤه العابثة كما تتجرد الشجرة من أوراقها الصفراء .

– نعم ، يا ولدى ! من أين مأتى اضطرابك ؟ أى قلق

يملك عليك نفسك ؟ تكلم ! حرر قلبك ! إن الألم الخفى – حين تعترف به – يتلاشى كقطرة الطل تحت وهج الشمس . تكلم !

اعترف ليست بما كان فى حياته كلها دون أن يجحد شيئاً . وأدرك الراهب أن اضطراب ليست إنما مرده إلى اللذائذ المادية . وهو يدرك أن الانصراف إلى عالم الفن والجمال إنما هو عبادة كاملة . لكن هذه العبادة تحتاج إلى قلب نقى ، ومخيلة متجردة صافية .

– يا ولدى ! يمكنك أن تبقى هنا ما أردت . فاقطع اتصالك بالجيل ! وطمئن أمك عن صحتك ! ولكن بلغ طلابك أنك محمول على الراحة ، واقطع وعدك بالعزف ! إنك ستضيع بعض المال ولكن لا بأس ...

– لا يضيرنى ضياعه شيئاً .

– ولقاء ذلك ستكسب كنزاً لا يقدر بثمن ، وضميراً مطمئناً .

– لكَ علىّ عهد الله بذلك .

أقام ليست فى هذا الكهف عدة أسابيع قضاها مع الراهب

فى حله وترحاله . حديثهما وقف على الله والآلام البشرية .

فى إحدى الليالى ، بعد العشاء ، لبث ليست فى حجرته مسهداً لا يطيعه الكرى ، مفكراً فى فتاته البعيدة . فلم يقدر إلا على أن يطيع نداء نفسه . فكتب إليها يحدثها بما هو فيه ، عن حياته الحاضرة ، ونزهاته المتعددة ، وأحاديثه مع الراهب . ولكنه مع ذلك يودعها ، لأنه يحبها كما تحبه .

لم يطل به المقام عند الراهب ، فعاد إلى پاريس ، وقد أخذ على نفسه ميثاقاً بألا يراها . ولكنه كتب إلى صديق يصور له ما يكابده .

« حتى هنا ... أجد قلبى محطماً ، ورأسى مثقلا بالاضطراب إن الاجتماع مع الناس يتعبنى ، والوحدة تضجرنى . أيام هذا الشهر كلها كانت شمساً وصفاء وجمالا . ولكنى — برغم ذلك — لا أرانى ضاحكاً مع الشمس . إلهى ! إننا نبتهل إليك من أعماق شقائنا ، ونضرع لك كما يضرع العبد الموجع تحت سياط سيده ، أو كالمسيح على صليبه يهتف : أبى ! أبى ! لماذا تركتنى ؟ »

وكتب إلى فتاته :

« إننى لأدرك جيداً أن لا شىء يقدر أن يملأ فراغ نفسى . مارية ! مارية ! ضعى يدك على قلبى ! وقلبك على صدرى ! إننى عار ... إننى أرتعش برداً ، فاكسينى لباس حبك ! دعينى أشتعل ! أنقذينى — عمرَ لحظة — من شقاء الزمن كله ! ألا ابعثى نفسى خلقاً جديداً ! »

وهكذا عاد ليست إلى مألوف حياته الأولى ، وعاد إلى دروسه التى كان يعطيها ، ومقطوعاته التى يعزفها . أما الحب فقد بدأ يتنفس ويحيا ... وكيف ينسى فتاته التى أخذ يناجيها بقوله :

«ألا صفحاً عنى ! واسمحى لى بأن أباركك كما أبارك إلهى . ألا تحسين حقاً أننى أحيا داخل نفسك ، وفى لحمك وعظمك ؟»

• • •

أرادت مارية أن تشهد حفلة ليلية من حفلات عزفه الدينى فى كنيسة « نوتردام » وكان حراماً أن تشهدها امرأة فى موهن من الليل . لكنه أدخلها بثوب رجل . وعند انتهاء العزف لم يقصدا إلا بيت ليست . وقد كان يسرها أن تجد نفسها وجهاً لوجه أمام بيان ليست وكتبه فى الغرفة التى يؤلف فيها موسيقاه !

إنها لم تستطع أن ترحل – برغم تأخرها – لأن الجو الذى كانت فيه كان يجذبها إلى البقاء بجانبه . فراحت تردد حيناً بعض الكلمات بنغمة رقيقة ، وحيناً تمد أناملها الرخصة إلى شعر حبيبها عابثة به . وهما يتحدثان آناً عن دانتى ، وعن شكسبير ، وعن بيرون ، وآناً يتحدثان عن حالهما وآمالهما .

– إنكِ هبطت علىّ كملاك الرحمة لتضيئى عزلتى الجافة ! ليتنى أقدر أن أحيا معك بعيداً عن هذه المجتمعات المزدحمة ، منفلتاً من هذه القيود !

نهضت مارية إلى النافذة حيث الفجر يوشح السماء بنوره ، ثم انثنت ، وعيناها مخضلتان بالدمع ، وجلست إزاءه ... ورويداً رويداً أخذت تكشف عن أسرار قلبها . إنها تتألم برغم أولادها ، وبرغم حياتها المترفة ومنزلتها العالية . وجدير بليست أن يهزه هذا الاعتراف الذى يدنيه من حلمه الذهبي .

– إذا أدركتُ يوماً ما أتمناه فإننى سأحبك كما تُحَبّ امرأة لم تمسها شفتان ! وستكونين طاهرة نقية كالنسيم الذى يهب على ذرى الجبال الشاهقة . ويكفى أن يدنو منى فمكِ هذا حتى أهتز كالشجرة التى تعبث بها الريح ... »

هكذا كانت نجوى ليست تتوالى بأسلوب وجدانى رقيق عصف بنفسها . وقد دقت الساعة الخامسة ، ولم يبق إلا الانصراف .

• • •

وأخيراً ، ما ينبغى أن يكون سيكون ! فإن هذين الكائنين المتقاربين أخذا يشعران بأن كليهما مرتبط بأخيه . بل قد نال حب هذه الفتاة من قلب ليست ما لم ينل منه حب سابق ولا لاحق . فإن هذه الفتاة الناضجة استطاعت أن تبعده عن ماضيه ، وتذهله عن آتيه . كما أن ليست استطاع بلغته الموسيقية العاطفية أن يصرفها عن حياتها غير أسفة على بيتها الذى راحت تهدمه بيديها ، ولا حافلة بالسمة التى ستصم بها حياتها .

ولنتركه الآن يصف لواعج نفسه بنفسه :

« إن قلبي يفيض عاطفة وسعادة . إننى لا أدرى أية غبطة سماوية ولذة عميقة تغمر وجودى كله ! ولكن يخيل إلىّ أننى لم أذق الحب من قبل . ألا قل لى من أى عالم خفى نزلت علىّ هذه الرعشة الإلهية من الحب ؟ إنها لن تكون إلا منك

أيتها الشقيقة ! أيها الملاك ! أيتها المرأة ! يا مارية ! لك الثناء يا إلهى على ما أوليتَ ، وما أعطيتَ ! ... »

ولنترك مارية نفسها تعبر عن عاطفتها :

« آه يا ليست ! لنمحُ الماضى ، ولننسَ ، ولنصفح ! ليكن كلانا لرفيقه ! فى ذلك اليوم سنفر معاً بعيدين عن العالم . وسنحيا ، ونتحابّ ... وسنموت وحدنا ! »

وفى اليوم الذى تعاهدا فيه على الفرار أقبلت متنكرة ، ترافقها أمة سوداء ، كانت تدعى بزهرة الثلج . فركبوا القطار . وما هى إلا نفخة واحدة حتى كان القطار يتواثب على قضبانه الحديدية ، وسحب دخانه القاتم تضرب الجو ، وتصيب العيون . وهم ينظرون إلى الأرض التى تنطوى تحتهم . كان ليست يتلهى كطفل ، وأما هى فقد كانت مطمئنة ساكنة فى موضعها .

كان مع الكونتس بناتها الثلاث . وها هى ذى « لويزون » الصغرى تمرض ، ويصيبها وجع أليم فى حلقها . فلا تقدر على طعام ولا على شراب . وهى فريسة حمى شديدة . فقلقت الأم على ابنتها ، وهبت تبذل جهدها لا ستنقاذ حياتها . فى حين انقطع والدها عن أسرته ، واسترسل فى مشاغله ولذاته . ويبدو

أن الجهود كلها ذهبت عبثاً ، لأن الفتاة استبد بها الموت .

جاء ليست فوقعت بين ذراعيه مجهشة بالبكاء . هل خيل إليها أن هذه الضربة هى مما أعده لها القدر جزاءً وفاقاً ؟ لكنها لم تكن بالمرأة التى تؤمن بعدالة القدر ، أو تحترم شرائع الحياة . إذ ما هى الأمانة ، والأسرة ، والفضيلة حتى تصان أقدارها ؟ أو ليست السعادة — فى أية لحظة — هى الشريعة الصادقة ؟ أليس تشبثك بالسعادة العابرة وحرصك عليها أفضل من تمسكك بشريعة سماوية ترهقك بأثقالها ، وتقتلك بآمالها ؟

كان للكونتس والدة تقية طالما اشمأزت من تصرف ابنتها ، وطالما أرادت أن تثنيها عن هذه الحياة التائهة . لكن الفتاة ما كانت لتريد إلا انطلاقاً وراء أهوائها وملذاتها ، بل راحت ترغم أمها على مرافقتها حيث تذهب . لأنها تريد أن تقاسم عاشقها كأس اللذة والسعادة ، لأنه هو رجل أحلامها . هى لا تريد منها جدلا ولا منطقاً لأن حبها فوق الجدل والمنطق . إنها ستقاسمه إكليل الشوك أو إكليل الغار . بل كيف تغادره وهى تعلم أنها سر عبقريته ؟ فهل تعصى الله فى إخماد هذه العبقرية التى كلفت برعايتها ؟

وهكذا هام الاثنان فى وادى الحب متنقلين من مكان إلى مكان ، من شوامخ الذرى البيضاء إلى مهاوى الأودية السحيقة ، والسهول الخصبة الندية فى أطراف سويسرة . يسكنان حجرات ضيقة كالكهوف ، ويتقاسمان الجوع والنصب والمخاطر . وكم مرة طوّفا ما شاءا حتى هبط المساء ، وأدركا نزلا على الطريق ، وأكلا أكل المنهز ، وانتقيا سريراً من العشب ، وناما متعانقين ...

لقد قطعا كل اتصال لهما بالعالم ، فهما يعيشان بعيدين عنه وكأنهما ليسا منه . ولعمرى هذا هو الهناء الذى يجنيه الحبيبان حين يخيل إليهما أنهما كون مستقل عن الأكوان ، وطبيعة ليس لها اتصال بطبيعته . فلا رسالة تصل ، ولا صحيفة تتسرب . وإنما جل ماهما فيه أن يحدث ليست فتاته عن المستقبل المنير الذى ينتظره ، أو عن الظروف التى توحى إليه أروع قصيدة فى الحب ، أو عن نجواه للطبيعة المشرقة يدعوها لتهتز معهما طرباً وسروراً .

فى مساء ما استطاعا أن يبلغا مرتقى صعباً معلقاً بين مخارم الجبال ، تناثرت عليه بعض أشجار من الصنوبر الضئيل ،

ولكن العين لا تلحظ عليه إلا نتفاً من العشب القصير وزهرات صفراء تنحني على الثلج . وفي شق منه غدير صغير لا يحرك منه الهواء إلا صفحة سوداء ، لا سمكة تقدر أن تحيا فيه ، ولا وعل اقترب منه ليشرب ، ولا عصفور بلل بمائه جناحيه .
كان الأفق ممدوداً أمامهما على سعته ، وفي أعماق تلك السكينة العميقة كانت تصل قرعات ناقوس تتردد في أحد الأودية .
وبدت نجمة الحب في تلك اللحظة تعكس أنوارها الصافية على تلك البحيرة .

هتف ليست :

ـ يا محبوبتي ! انظري هذا الكوكب الجميل ! كم يشفق على هذا الماء اللعين ! وكم يود أن يعزيه في وحشته ! أنتِ كهذا الكوكب الجميل أضأت حياتي ، وفتحت آفاق مستقبلي !

هذا بعض ما كان يتردد في حياتهما البوهيمية القروية ، ولكن لا يمكن أن تدوم هذه الحياة .

قال لها ليست يوماً :

ـ إن هناك صديقاً لي يهيء لي دروساً أعطيها ، لأن المال أوشك أن ينفد . وأنتِ إنما صرت رفيقة فتى بوهيمي فنان لا يملك

مالا . وهو لن يمس شيئاً من نقودك . وأنت آليت على نفسك أن تقاسميه حظه مهما كان .

ما كان أطوع الكونتس لفتاها ! فقد حزما متاعهما واستعدا للرحيل . لبثا ثلاثة أيام ينحدران من فردوسهما المفقود ، حتى بلغا « جنيف » فى ٢١ آب (أغسطس) سنة ١٨٣٥ ، وأويا إلى نزل فخم فى المدينة ، ثم ما لبثا أن انتقلا إلى بيت فيها ، كانت الحياة فيه جميلة برغم بساطة المسكن ، لأنه غنى المشاهد ، رائع الطبيعة .

بدأت المدينة تلغظ فى الحديث عن الزائرين الجديدين، كما كانت باريس تتحدث عن هربهما . وقد بلغ المدينة النبأ ، فسار كل ساكن يود أن ينظر هذين الغريبين المحبين الهائمين . بل أصبحت حياتهما موضوعاً لأقاصيص كثيرة ينسجها الوهم حيناً والواقع حيناً . وكأن هذه الحالة جعلت الكونتس فى وجوم من نفسها ، حتى أخذت تؤثر الوحدة والابتعاد عن فتاها حين يخوض وحده فى المجامع ، لأنها غدت ترى فى كل عين سؤالا ، وفى كل كلمة تأنيباً .

أما ليست فقد كانت حياته نسيج وحدها فى تلك المدينة ،

على غبطة فى النفس ، وكبرياء فى الفن . وما أصدق ما قالته إحدى السيدات فى وصف موكب هذين العاشقين :

« إن الجميلة التى كانت ترافق ليست إنما هى امرأة فى الثلاثين تقريباً ، لها زوج هجرته ، وخمسة أولاد أو ستة . وليست رجل رقيق المزاج وإن كان قاسى الملامح . تدل طلعته على رقته ، وإن دلت على خيبته . وقد لا نرى فى أحاديثه ما يدل على عمق ، ولكنه لا يخلو أحياناً من أن تصدر عنه الأفكار العميقة . إنه ضائع النفس لأنه يحيا فى وسط أدب اتسم بمبادئه الخطرة المتطرفة . فهو قد طرح العقائد جانباً دون أن يضع شيئاً عوضاً عنها ، واسترسل إلى حياة حرة مطلقة من كل قيد دون أن يسيطر عليها ضمير . قدم لى فتاته كخليلة دون أن يبكته شىء . وبرغم ذلك شاهدته نبيل النفس ذاهلا مجنوناً ! وأذكر أننى دخلت معه فى جدل كثير ، فكان أبرز ما يتصف به هذا العقل أنه يحب الانطلاق من كل شىء .

إنه رفيع النفس والأسلوب ، وطالما بكيت حين سمعته يعزف ! إنه شيطان فنان ! يفيض حياة ، ويتوقد ناراً ، ويتفجر عبقرية . يا للمزيج الكامل من الخير والشر ! يرتكب

الخطايا دون وازع أو مؤنب ، ويجد نفسه سعيداً وسط هذه الخطايا . يا له من خليط متناقض يمثل نفسية هذا الفنان ! »

وهنالك امرأة أخرى حاولت وصفه فقالت :

« جلس ليست فى مكانه ، كانت أنامله دقيقة ، وفى بنصره يحمل خاتماً نقش عليه رأس ميت محلى بالفضة والذهب . وكانت خصل شعره تتهادى على كتفيه ... بعد طعام الغداء قام يستريح ، وكان مرحه لا يحد بحدود . أمسك بقطتنا البيضاء ، وأخذ يداعبها ويقبلها ، ويقضى معظم راحته معها . وبعد قليل دنا من البيان ، وراح يعزف . فكان يخيل إلى أنه ليس هو بالعازف ، وإنما شيطان عبقريته . فكانت تمر على وجهه كل أحاسيسه ، وحركاته النفسية وأفكاره كأنه انتقل إلى عالم مسحور . فليس هناك كلام يعبر عن هذه الحالات : فالأحاسيس تقيدت ، والمشاعر تحددت ، فلا عدت تسمع أو ترى إلا الفنان ! والأنامل التى كنت تحسبها نحيلة ضئيلة أخذت تغلب على زئير العاصفة . إنه استهوانا ، وأذهلنا عن نفسنا ووعينا ، كأنما باطنه يقول : أيها الأقزام ! إننى هنا السيد ! ... تمر أنامله دون أن يراها كيف تنتقل ، وعيناه

تسبحان فى الفضاء الرحيب ، كأنه يقرأ علينا صفحات غير مرئية ، أو يؤلف مقطوعة خفية ، أو يستنزل وحياً وليد الساعة . وكنا نشعر أن الآلة تضاءلت أمام عبقريته الفذة حتى عجزت عن التعبير . إن السامع له لا يصغى بأذنيه ، وإنما يرتعش بنفسه وقلبه . »

• • •

شاء القدر أن تضع الكونتس ابنة فى ١٨ ديسمبر عام ١٨٣٥ سجلت باسم « بلاندين » الابنة الحقيقية للأستاذ الموسيقى فرانز ليست وعمره ٢٤ سنة ، وكاترين وعمرها ٢٤ سنة وليدة باريس . وهما قرينان بدون زواج . على أن عمر الأم كان فى الواقع فوق الثلاثين .

لم يمر ربيع ١٨٣٦ حتى بدا شىء من القلق والذبول على وجه كاترين . فالأمومة لم تشغلها عن نفسها إلا قليلا ، وهى لا تطرق المجامع إلا لماما ، لأن وضعها كان يزعجها ، وهى التى كانت فى المنزلة العالية والحياة المترفة .

قادها ليست لتشاهد أزهار الأشجار والحقول فى أوائل اخضرارها بين الأودية المثلجة ، فشاهدا كوخ « غليوم تل » وبحيرة « ڤالنشتاد » وسمعا نواقيس « جنيف » والأغانى القروية ، وتسابقا إلى اقتطاف الأزاهير بين أعشاب الجبال النابتة بالقرب بساط من الثلج الأبدى .

هكذا قضيا الصيف ، وابتعدا عن مشاغل الحياة والدروس الموسيقية التى كان يعطيها ليست طلباً للحياة . وفى كل مرة كانت تذكر باريس وحياتها كان ليست يثنيها عن هذه الذكرى، لأن السعادة الحقيقية هى السعادة التى ينغمسان فيها الآن . وفى هذا الصيف كتبت الكونتس روايتهـا « نليدا » وهى قصة لا يمثل بطلها فى الحقيقة إلا ليست نفسه . ومن أجدر من هذه المرأة التى عرفت نفسية ليست بأن تكتب عنه ؟ فمن هو البطل « جيرمان » ؟ « إنه فتى أوتى مواهب نادرة . إن له مظاهر العبقرية والإحساس . توقد فى حديثه ، وإرادة لا ترد . كبرياء عالية ، وتعطش إلى الجمال حيث كان ، وبأى زى كان . ولكنه – برغم ذلك – أوتى تناقضاً غريباً لا يوفق بين صفاته . إنه لا يملك إلا قوة الانبساط والتفتح . أما قوة الانضمام فهى تنقصه . إنه يطيع كل غرائزه التى تناديه ، وكل الدوافع المتناقضة التى تدعوه . حتى كأن نشأته القروية الأولى لم تترك أى أثر فى نفسه . وإذا انفرد بنفسه راح يقرأ بنهم لأنه يريد المعرفة والتبسط فى المعرفة ، لكنه يقرأ بدون تعيين ولا تمييز . فالفوضى طبيعة مكينة فى نفسه، والظمأ وراء المحال

ينهش قلبه ... »

وهما على هذه الحال إذا بركب الكاتبة — جورج صاند — ينزل عليهما ، وقد غادرت باريس بعد طلاقها من زوجها ، ومعها ابنتاها الصغيرتان . والندل الذى رآها تهبط من العجلة رأى فيها شخصاً غريباً يلبس لبس الرجال وهو امرأة ، وينفث فمها الدخان . سألته عن ليست ذى الشعر الطويل المشعث فتضاحك المسئول ، وقدم لها اسمه ، فقرأت على ضوء الشمعة :

الاسم : فرانز ليست : موسيقار ، فيلسوف ولد فى البرناس . جاء من الشك ، وذهب إلى الحقيقة.

جنسيته : الطبيعة

من أين : من الله

إلى أين : إلى السماء

مكان الولادة : أوربا

الصفات : بطال

مجاز من : الرأى العام

وما هى إلا لحظة حتى اجتمع هؤلاء ، وكان لاجتماعهم هتاف من الفرح عنيف . وبذا دخل شخص جديد فى

حياتهم الهادئة . وطبيعى ألا تحب جورج صاند الاعتزال فى موطن واحد ، وهى التى جاءت كرائدة تطوف فى هذه المناطق الجبلية الجميلة ، فكان لها ما أرادت ! وساروا قافلة واحدة يشقون المسالك الوعرة من مجاهل الألب ، حيث يتناثر الحصا تحت حوافر البغال على حفاف المهاوى العميقة . وليست لا يستهويه من كل ذلك إلا مرأى السماء . والكونتس مزعجة النفس ، تريد أى منتهى لهذه الرحلة المتعبة . على أن ليست يدعوها إلى التصبر « لأنهم يبحثون عن أصل العالم ، ويكفى النظر فى الفضاء مغنياً عن التفكير فى أى شىء . »

دامت الرحلة زمناً طويلا برغم لواذع البرد فوق الذرى ، حتى انتهى بهم المطاف إلى نهر الرين الذى ترصعه الجسور المنصوبة ، ويهيج ماؤه أحياناً ويثور . ولكن مقدم الخريف عكر عليهم التملى بمحاسن هذا النهر . فكان الضباب - غالباً - يتصاعد على سطح النهر حتى يوارى كل شىء على ضفتيه ، وكانت قطرات من المطر تنهل عليه ، وتحجب زرقة الأفق عن العيون . وفى كل هذا جمال أى جمال .

إن بين الأدب والموسيقى ألفة شائعة لا تنكر . وها قد اجتمع

فى بيت واحد أديبة مرموقة ، وموسيقار بارع . فجورج صاند
تصف ما كان يعبر به ليست فى مقاطيعه . وليست يوحى —
بطريقة الموسيقى — المقاطيع الشعرية النثرية التى كانت صاند
توشح بها مقالاتها . وهكذا ولدت بحيرة « ڤالنشتاد » ذات
الأمواج الكبيرة الموسيقية ممثلة ماء ينحدر برقة على منحدر ،
وكذلك ألف مقاطيعه « أعوام الحج » و « وادى أوبرمان »
و«أجراس جنيف» ، وكلها مقاطيع ذات رنين مدوٍّ كالبرونز .
وخلال هذا الخصب الفنى كانت الكونتس تتلهى بتلاوة
« دانتى » و « غوتى » . ولكنها سرعان ما سئمت ، فراحت
تبحث عن أغراسها اليابسة ، وتقتلعها وتضعها على المنضدة .
فذكريات البحيرات والجبال والعزلة والهوى السعيد والأحاسيس
المتوزعة عاودتها ، فلم تتمالك أن أرسلت دمعها على هذه الأوراق
اليابسة ، ثم ارتمت مجهودة مكدودة على مقعدها ، تعصر رأسها
بيديها وتفكر ... وإنها لتعلم أن ليست قد عقد صداقات مع
كثير من أسر المدينة . فهى تتخيل جلساته ، وتتصور أحاديثه ،
ومدى ظفره . وما كانت تملك إلا أن تتركه ينصرف ، وتجلس
إلى الساعة تنتظر ، وتنظر تنقل العقربين بقلق واضطراب ،

فريسة سأم عنيف . وقد ظنت أن باريس ستعيدها إلى توازنها
وتسمع بأذنيها الضجرتين الساعات المتجاورة تتجاوب معلنة ،
الواحدة بعد الأخرى ، ساعات الانتظار ، حتى إذا دخل عليها
تلقته بالعناق كأنه آت من سفر بعيد ، وطلبت إليه أن يحدثها
عن سهرته وما فيها. فيأتي جوابه بما يثير شجوها وأساها . ولكن ما كان
أشد اغتباط نفسها حين يفاجئها بعزفه « المقطوعة التي وقفها على
حبها ، والتي ألفها من أجلها . هذه المقطوعة هي : حلم حب ! »

ترامى إلى ليست أن عازفاً حدثاً نبغ في باريس فخشي منه
أن ينافسه على موضعه . فاعتزم العودة إلى باريس وحده .
عاد واستطاع أن يزحزح خصمه عن منافسته ، وعادت
الكونتس على أثره . فكان همها الأول أن تجعل من المنزل
البسيط صالوناً فخماً يأوي إليه عظماء الفن والأدب والموسيقى .
وفي الحقيقة أخذ رهط من هؤلاء يعوجون عليه . وكان الرائي
يلحظ بينهم « فيكتور هيغو » بقامته القصيرة ، وجبهته الواسعة
ذات الأخاديد . وجورج صاند وعشيقها الموسيقي « شوپان » .
« وبلزاك » الذي يترامى في مشيته كالثور الضخم ، « ولامينى »
الذي يتردى مسوح الرهبان . ومع ذلك كله ظلت الكونتس

الأول . ولكن ، لا باريس ولا عظماء باريس استطاعوا أن ينسوها ماضيها !

كانت فى هذه الجلسات التى يغلب عليها الأدب المحض والفصاحة كامرأة عاقلة منفية بين هذه الرءوس ، على أنها ترق نفساً حين يخفف ليست بعزفه هذا الجو المثقل .

مرت الأيام على هذا النسق الرتيب ، حتى أصبحت الرابطة بين الحبيبين علائق تخضع للعادة لا للحب الموروث . فها هما الاثنان يرحلان إلى إيطاليا ، كأنما حب التنقل من طبيعتهما ، أو من طبيعة ليست الغريزية ، لأن الكونتس كانت تضيق ذرعاً بهذه الحياة البدوية .

وفى ميلانو دُعى ليست إلى ليالٍ عازفة شريطة أن يتخلى عن شخصيته الفنية التى تردد الألحان العميقة الوجدانية ، بحجة أن الشعب الإيطالى لا يستسيغ مثل هذه الألحان ، لأنه شعب مرحٌ يحب من الألحان لحن الفالس مثلا ، والألحان الخفيفة ، والأصوات المقلدة ، على أن ليست استطاع أن يوفق فى هذه الحفلات بين هواه الخاص وهوى هذا الشعب الجامح فى مرحه .

٧

لقد أرادت الكونتس أن تحبس عشيقها فى قمقم . لكن ليست ليس من الطيور التى ألفت الأقفاص . وقد بدأت ثيابها المستعارة تتساقط ثوباً ثوباً حتى بدت بحقيقتها ، فإذا هى امرأة يراها ليست أنانية مفرطة فى أنانيتها ، تحب الفن ، ولا تحسن تذوقه ، ظالمة قاسية .

إن الفنان يريد أن يكون حراً بعيداً عن القيود . فها هو ذا يميل إلى التنزه وحيداً ، ويأنس بالعزلة بعيداً . وكأن الفتاة قد أحست أن سلطان ملذتها عليه قد فقد قوته ، ولكنها تريد أن تتمسك به ما وجدت إلى ذلك سبيلا . وليس هنالك إلا سبيلان : أن تثير فى ليست عاطفة الأبوة ، وأن تصرفه نحو مشاهد للجمال الكئيب ، فدعت ابنتها « بلاندين » من سويسرة حيث كانت تتمتع بالهواء العليل . وكان معها فى انتظارها ليست على شاطئ بحيرة « كوم » حيث وضعت فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٣٧ ابنة ثانية سمتها « كوزيما » تفاؤلا

بهذه البحيرة ، وإعجاباً بجمال مدينتها ، وإيماناً بقديسها « كوسم » وهو طبيب عربى صالح . ثم انتقلا إلى « ڤينيسيا » وقد أيقنت الكونتس أنها استطاعت أن تجذبه إليها مرة ثانية بعد ما نفر عنها بقوة الفن نفسه . ولكن لماذا تراها أحبت فناناً ؟ أو لم تكن تدرى أن الفنان كالمرأة سريع الوقوع ، سريع الفرار ؟

نزلا فى أحد فنادق المدينة ، وأخذا يطوفان على الجندول فى الأقنية بين القصور الخربة ، ويذهبان إلى الجزائر المتناثرة بين الماء والسماء ، حيث يرف جناح طائر على جناح ، ويتأملان مزقاً من الغيوم الهائمة ، وردية حيناً ، ومشربة بالزرقة حيناً ، أو متوهجة حيث يبرز القمر زاحفاً على أثر جنازة الشمس المضرجة بدمها !

وفى ڤينيسيا اعتلت الكونتس ، فقدر له أن يزور — خلال علتها — آثار إيطاليا الفنية وحده ، متنقلا من عبقرية رافائيل إلى ميشيل أنج ، إلى ليونار دى ڤنسى . فكانت رحلاته المتتالية بين بولونيا وفلورنسا وروما دروساً عميقة الأثر فى نفسه ، إذ اقتبس عنها جلال التماثيل المنصوبة ، وتناسق الصور المعلقة ، ونظام المبانى ، وصفاء السماء !

كتب ليست إلى صديقه الموسيقى « برليوز » يحدثه عما تركت فى نفسه هذه الزيارات :

« إن رافائيل وميشيل أنج جعلانى أفهم الآن موزارت وبيتهوفن . وهذا دانتى قد قبس تعبيره القصصى عن ميشيل أنج »

وفى هذا دلالة واضحة على ما يريد به الفنان من هذه العلائق المتينة التى تربط ما بين ضروب الفنون ، وإن اختلفت .

أرادت الكونتس أن تتوثق منزلتها فى الأوساط الإيطالية ، لكنها لم تظفر بأكثر مما ظفرت به من قبل . فى حين كان ليست يدخل حيث يشاء ، ويدعى إلى الحفلات وحده . فزاد هذا الوضع نفس الكونتس شجاً وحقداً . إذاً فلتبق فى الفندق مستريحة ! وليذهب هو حيث يريد ! ما همها من ذلك ؟ لكن هذا التعليل لم يكن صادقاً فى نفسها ... إنها تريد منه الآن أن يبقى بجانبها لأنها متألمة . وهو لا يستطيع ذلك ... إذاً ، فليكن ما لا بد أن يكون !

بعد هذا الفتور ، بدأت رحلات ليست البعيدة بين عواصم

أوربا المختلفة . وامتد عمر هذه الرحلات من عام ١٨٣٩ إلى عام ١٨٤٤ . زار فى أثنائها فرنسا ، وإنجلترة ، والنمسا ، وبولونيا ، وألمانيا ، وسويسرة . وكان موفقاً فى أسفاره وآثاره . إلا أنه لم يصادف نجاحاً فى إنجلترة التى كانت فقيرة بروحها الموسيقية .

ومما يذكر فى ذلك أنه فى إحدى الليالى لم يجد فى البهو سوى ستة مستمعين . فاعتذر عن العزف ، وخاطب المتفرجين بقوله :

— إن الموسيقى هنا تضمحل . هنا فراغ وخلاء ! فاسمحوا لى أن أترككم ، وأن تستردوا دراهمكم . على أن تكونوا الليلة ضيوفى فى نزلى ، وهناك سأعزف لكم ما يلذكم .

وفى لندن أوشك أن يظفر بنجاح عظيم ، لولا أن الكونتس نزلت البهو بغتة ، فسرى فى الجمهور همس بسلوك هذه الكونتس فتفرقوا ... أما فى ألمانيا فقد ضرب بسهم موفق حيث كان ، مكرماً فى كل مكان . واكتظ البهو حتى لم يجد المتأخر موضعاً . وفى إحدى حفلاته نزل طالبان مقبلان من « ليبزيغ » للاستماع إليه . لكنهما لم يجدا مكاناً ، وحين أبلغاه أمنيتهما أجابهما :

— أمهلانى ساعة هذا المساء ! سأعزف لكما وحدكما ،

ولن يذهب عناؤكما باطلا .

وحين غادر ليست برلين كنت ترى أكثر من خمسمائة طالب على جيادهم يودعونه ، ويلقون عليه الهدايا والأزهار تكريماً لفنه السامى . على أن ليست فى أسفاره كلها لم ينس فتاته ، بل قد انتقى لها جملة هدايا نفيسة من مختلف البلدان . ولم ينس أن ينبئها شوقه بين الحين والحين برسالاته المتتابعة ، وهى تجيب اقتضاباً ، أو لا تلقى جواباً .

هو يكتب إليها :

« لقد مرّ علىّ أسبوعان دون أن أتلقى منك كلمة . ليس لى إلا أن أفكر ، وأعتقد . إننى جد كئيب . صورتك معلقة أمامى . أحبك حبًّا شفيقاً صادقاً . قولى لى : إنك معى فى عاطفتى وحبى . ليس لى إلا كلمة واحدة ، وأمنية واحدة ، وخفقة فى فؤادى واحدة . هى أن أراك ، وأراك ... »

وهى تجيبه :

« إننى أريد أن يقلقك ما يقلقنى ، من هم يشجينى ، وحزن بك يشغلنى ... لقد كان يكفينى منك كلمة واحدة تجعلنى أتقبل ببساطة ما لا تجده أنت بسيطاً ... »

والآن ، تحمله بقية معزوفاته إلى « بودابست » وطنه الأول ، ومسقط رأسه . فتذكر طفولته حين كان يجد هذه الروابى المخضرة كالأوقيانوس الهامد ! وهذه السهول المحاطة بالغدران ، وهذه المسالك الموغلة فى الحقول المترامية... أوليست هذه المشاهد هى حلبة أيامه الأولى ؟

كم من ذكريات هبت عليه حين وطئت قدماه هذه الأرض ! وما فى هذه الذكريات إلا كل عزيز ، لأنها تحلت بذلك الماضى الذى لا يرد . وللماضى روعة قدسية بليغة ! ولم يكن لقاء وطنه له بالشىء الهين ، لأن اللقاء كان احتفاء الوطن كله بابنه النابغ . فما أشد تأثره حين دخل بيت طفولته ، وكنيسة قريته التى شهدت وقفته الأولى للصلاة ! وفى وطنه قدم له مواطنوه المجريون خنجراً اعترافاً بعبقريته وخدمته لبلاده . وعنه يقول : « إن فى المجر ، فى البلد المتسم بالأخلاق القديمة والفروسية ، يؤدى الخنجر معنى وطنيا خاصا . فهو إشارة إلى الرجولة ، وهو السلاح الذى ينبغى لكل رجل أن يحمله . وإذا قدم لى رجال وطنى المختارون هذا السلاح ، بعد غيبة خمسة عشر عاماً ، فهم يقدمونه مكافأة لى على خدمتى للفن

فى وطنى . وإننى لأجد فى تقديمه شرفاً لى لا يقدر ، لأنه يدعونى إلى القيام بواجبى فى الحياة كإنسان وكفنان ... »

• • •

بلغ الآن ليست الثلاثين من عمره ، واستوى فى أوج مجده وجماله . صفرة مذهبة ، وعينان زرقاوان تلتهبان ، وفم تراصّت أسنانه بصفاء . وبسمة هى بسمة ملاك . ومثل هذا الجمال ترك نسوة باريس يطفن حوله طواف النحل على الزهرة الناضجة ، فهن يزدحمن حيث يكون ، ويأخذن من آثاره ما ينافسن به غيرهن ليكون تذكاراً . وهو فى هذا الوسط يحيا مرحاً ، نشيطاً ، يزيده مجده زهواً وكبراً . يشرب ، ويضحك . ويدخن بإسراف ، دون أن يستثنى شيئاً من لذائذ الحياة .

وطبيعى ألا يثير هذا الضرب من الحياة فى نفس الكونتس إلا الغيرة المشتعلة . وهى لا تنى تبحث عن أى سبيل تردّ به فتاها إلى هواها . ولكن ليست كالفرس الجامح لا يلوى به شىء عن هواه . فلا الكونتس ، ولا أولاده الثلاثة بقادرين على أن يقفوه عما هو مسترسل فيه . وقد جربت الكونتس أن تثير فيه الغيرة ، فكتبت إليه : أن الناقد « سانت بوف » أخذ

يردد عليها كزائر ، وعاذل ، ومشتاق ، ومحب . لكن ليست لا يبالى بأقوالها ، لأنه أدرى بحبائلها المنصوبة . على أن الرسائل المتناوبة بين ليست والكونتس تعين مراحل هذه الأسفار الطويلة ، فالكونتس مع أولادها الثلاثة منبوذون فى باريس ، يتحملون شظف العيش ، ويقاسون متاعب الحياة ، فى حين لا يجدّ هو إلا فى لهوها ، ولا يمعن إلا فى لذائذها .

هى تكتب له :

« يا فضيلتى ! يا قوتى ! يا أحزانى المقدسة ! يا بأسى الإلهى ! على أى حال أنت ؟ لقد تركت نفسى خالية ، وقلبى فراغاً . إذ لا فرح فى الحياة يغنينى ويسلينى ...

يا ليست ! إنك لم تحبنى — فى لحظة من حياتك — كما أحببتك »

ولكنه كان يحسن الإجابة :

« لتحى ! ولتسند ذراعك ذراعى ! دعينى أنم بهدوء على قلبك ، فإن خفقاته عندى خفقة الجمال المثالى ، والحب الأبدى » .

حتى إذا تلاقى الاثنان همد هذا الشعور ، وجمدت العاطفة .

وقد أحس ليست أن الأمور لن تبقى طويلا على هذه الحالة التى يحتالها لها . إنه فنان يجنح إلى الحرية ...

« إننى أتألم من أعصابى ... وحياتى تذوب فى رغبة جامحة سوداء إلى رؤيتك والتملك عليك . لقد أحببتك دائماً – كما تعلمين – وطويلا ، حب جهالة وجنون . والآن علمت برغم تألمى بقربك أن هذا الألم إنما هو حياتى . إن ساعة انفصالنا تروعنى . إنه كناقوس الموت . وداعاً ... مع حبى العميق ... »

• • •

حين عاج ليست بباريس كان سكرتيره يتولى الإجابة عنه على كل ما يرده من كتب المعجبين ، وطلبات الطالبين . وما كان أكثر هذه الكتب وهذه الطلبات ! وجلها من سيدات وغانيات . وليس لليست إلا أن يستقبل آتياً ، أو يشيع راحلا...

فى أحد الأيام شاهد فتى ألمانياً طالما رآه يستمع إليه ، ذا وجه قبيح ، وشعر مشعث ، يرتدى ثياباً ضيقة . أقبل عليه الفتى وكلمه بالألمانية :

– يا سيد ليست ! إننى لست بمواطن لك . ولكنا أيضاً غريبان هنا . أما كرم خلقك فقد ضربت به الأمثال . إن

الفنانين الغرباء الذين يتلاقون فى باريس يجمع بينهم حب الموسيقى .

وحرىّ بهذه اللهجة الصارمة أن تستثير انتباه ليست . فترك هذا الفتى يتمم قصة حياته التى هى قصة حياة كل فنان . ولوع بالفن ، فمغامرات من أجله ، فعوائق فى وجهه ، فحالات متقلبة من يأس ورجاء ، وشك واطمئنان ، فجهاد للحياة حيناً ، وللفن حيناً . وإنه الآن ليتخبط فى مهاوى العوز ومطارح الغربة مع زوجته ، وكلبه الشقى .

التفت إليه ليست مسائلا :

– وما شأن هذا الكلب معكما ؟

– إنه كلب ضخم ، أحبه كأعز صديق لى ، لا أقدر أن أتركه . أما زوجتى فهى كريمة النفس ، طيبة القلب . والآن ليس لدينا ما نأكله ... هل تستطيع أن تقدم لى من مقاطيعك الموسيقية ؟ ألا يدهشك أن الحاجة تدفع مثلى إلى ممارسة موسيقى الرقص ليجد له أكلا ؟

أدرك ليست أن مخاطبه ليس بالسائل المستجدى ، وإنما هو فتى يحس شيئاً فى أعماق نفسه . وفى الوقت ذاته يتجاذبه

داعيان مختلفان . داعى الحياة ، وداعى الجمال . وكأن ليست استحيا من نفسه أمام هذا الفتى المحروم . فوعده خيراً ، وأبدى اهتماماً بأمره . فسأله عن مسكنه الحالى :

– شارع هلدر ، رقم ٢٥ .

وعن اسمه :

– ريشارد ڤاجنير !

وما « ريشارد ڤاجنير » إلا رب الموسيقى الحديثة بعد بيتهوڤن .

• • •

٨

فى مدرج الأعوام اللاحقة ، لم يكن ليست ليفرغ من أدوار غرامية يمثلها على ملعب الحياة ، على أنه ظل وفياً للعهد الماضى ، محترماً للحب الأول . فهو يخوض الليالى ، ويضرب المواعيد للهائمات به ، ثم نراه لا ينقطع عن زيارة الكونتس والتحدث معها ، والاطمئنان على صحة أولادها .

كانت ابنته « بلاندين » فى الخامسة والنصف ، و « كوزيما » فى الثالثة والنصف ، و « دانيال » له عامان . يعيشون جميعاً فى بيت ليس حاله على فخامة برغم غنى أبيهم . حتى كانت الصغيرتان تحتاران فى المكان الذى يختارانه لوضع دُماهما .

أما الأحاديث الجديدة ، حين يجتمعان ، فقد تغيرت واختلفت عن الأحاديث التى كانت تشرق بالحب ، وتزخر بالشوق . أحاديثهما الآن عن صغيرة نجمت أسنانها ، وأخرى تسقطها ، أو تشكو التهاباً فى حلقها . ولكنها — خلال ذلك — تلومه ، وتعنف فى لومه على هذه المسالك الشاذة التى

يسلكها فى كل مكان ، وتذكره بالعلائق التى تربط ما بينهما .
بل نراها تنتقل من هذا اللوم إلى التهديد بأنها امرأة لم تعد لها القدرة على الحياة فى هذا الوضع . إنها تألمت من أجله ، وهى التى كانت تقدر أن تجد السعادة والغبطة فى حجر فنانها الحبيب . وإذا قدر لها ألا تجرى حياتها إلا على هذا النسق فليكن الفراق إذاً ...

لكن ليست لم يكن من قوة الإرادة بحيث يستطيع التصريح بما يريد أن يقول . ولكنه راح كدأبه يمهل ويعلل ... وظل يتبع هواه، فله فى كل منزل ينزله حبيب يلفه، أو غادة يستريح إليها.

عاد إلى برلين ، فلقى فى حسانها ما أذهله عن حسنائه ، وإن لم يذهله عن مواصلة الكتابة إليها ببرودة حيناً ، وحيناً بحرارة . وفى برلين يأتيه الظفر مرة ثانية ، فيجعل من ليست رباً موسيقياً ترحب بقيثارته الأرباب . « يا له من فوز غير مقدور . غصّ المكان بأكثر من ثمانمائة مستمع . كم صفق لى الملك إعجاباً ! إننى مريض بالعزف والفوز معاً . إنهم يريدون أن يسمعونى ، وألا يسمعوا غيرى . ما أشد تعبى فى هذه الليالى ! »

وفى ربيع سنة ١٨٤٢ انتقل ليست إلى روسيا ، فكانت رحلته كرحلاته الأخرى مكللة بالفوز . وبينما كان يعزف أمام القيصر فى حفلة عارمة لاحظ ليست أن القيصر مشغول عنه ، خائض فى حديث مع مجاوره . وقف ليست عن العزف فجأة ، فأثار انتباه المستمعين . ولكن أحداً لم يتكلم . وحين جاء ليست يحيى القيصر سأله عن سبب وقوفه عن العزف ، فأجاب ليست جوابه المعروف :

– إذا تكلم القيصر وجب على الآخرين أن يسكتوا .

فما حرك هذا الجواب المتحدى إلا الغضب فى نفس القيصر . من أين جاء ليست ؟ ومن هو هذا الشخص الذى يتحدى القيصر ظل الله على الأرض ؟ ليخرج من البلاد غير مأسوف عليه !

وما كان أعجب هذا التعليق الذى وجد مخطوطاً على اسمه ! « الاسم : ليست . مجرى الأصل . مجهول الأبوين . شخص خطر . حر الفكر . صديق الملحدين . منطاق مع أهوائه . سكير ، ينبغى إخراجه من البلاد »

وهكذا خرج ليست من روسيا غير أسف على بلد الظلم

والطغيان . وخلال عودته ومقامه فى الأرض الجرمانية كانت الكتب بينه وبين الكونتس تتوالى كالعادة . ولكن أصبح لهذه الرسائل طابع خاص . هو طابع الكآبة ، والعتاب المر ، والجفوة المؤذنة بالقطيعة . فهى تتسقط أخباره فى مطارح الغربة ، وبخاصة علائقه التى يقيمها ويقطعها بين حبيب سابق ، وحبيب لاحق ، فتحمل عليه من أجل هذه العلائق ، وتتهمه ، وتؤلمه ، وهو يزيغ عن الحقيقة حيناً ، ويعترف بها حيناً ، بل أخذ يعد وجودها حجر عثرة فى تقدمه وعمله ، ومصدر شقاء له . وهى تتراخى أمام هذه الضربة ، وتنكمش على نفسها . وكيف تريد أن تقف ممن يقول لها بصراحة :

« لا أريد بعد الآن أن أكلمك ، ولا أراك ، ولا أكتب إليك ، أو لم تنعتينى بالمهرج ؟ بلى ، إننى مهرج على طريقة الذى يمثلون دور المصارع بعد تناوله السم الزعاف ، ما همنى ذلك كله ! ينبغى للسكون أن يخيم على آلام قلبى ... »

وهكذا جاءت القطيعة ! ولكن هذه القطيعة كان يقف فى وجهها عوائق ، منها عوائق الأولاد ، فهو يريد أن يقدم لهم ما يستطيعه ، ويريد أن يوجه الأم فى تهذيبهم على الطريقة التى

يختارها ، ويهددها بأن يستلهم من بين يديها إذا أرادت تنشئتهم على بغضه . ولما كان ليست مطبوعاً على طبع شعرى رقيق ، وذوق دقيق آثر ألا ينتهى هذا الحب الكبير الذى عصف بحياته بخصومات حقيرة .

وقد أوحت هذه القطيعة إلى الكونتس بهذه الأبيات :

« لا ، إنك لن تسمع أبداً ، من شفتها المتكبرة ، فى الوداع الموجع ، عتاباً ولا أسفاً ... ! »

• • •

لم يبق بعد القطيعة من تواصل إلا بين ليست وأولاده.الذين تشرف على شئونهم جدتهم ، وهو لا يريد أن يكون للأم بهم أى اتصال . فكان يكتب إلى ابنته الكبرى « بلاندين » وهى فى التاسعة من عمرها رسائل تطفح رقة وحناناً ، ويطلب إليها أن تعانق أختها وأخاها الصغير . وتقول لهما : « إن أبانا يحبنا ويعنى بنا كثيراً ، ويوصينا بأن نركع جميعاً ، ونصلى لله ! » ونراه يكتب إلى ابنته من أسبانيا : « ابنتى العزيزة ! بعد يومين أو ثلاثة أقصد أسبانيا . فابحثى فى الخارطة عن مدريد وليشبونة . إن ذكراك تتبعنى فى كل مكان ! ...

وداعاً يا بنيتى ! كونى سعيدة ، ولا تشغلى نفسك بى الآن ، ولكن بعد زمان ما ، حين يتولاك الهم والحزن فكرى فى أبيك الذى جهد – كل حياته – أن يجنبك إياهما ... »

فى أسبانيا ذاتها لمح مرة امرأة تقترب من مقعده ، وترنو إليه بعينين بنفسجيتين . وسألته :

– هل تعرفنى ؟

– أنى لى أن أعرفك ؟!

– أنسيتَ « كارولين » تلميذتك ؟

– كارولين ! هذه أنت ...

لقد كان اللقاء فجائيا ، وكانت بواعثه شديدة التأثير فى نفسه ، لأنه لقاء فتح خزائن نفسها ، واستنبش ما فى عبقريته من رقة وحنان . وضربا موعداً للقاء فى الليلة الثانية فى مسكنها . فأتاها ، واستقبلته ، وبرزت له برداء زاهر فاتن . وعلى وجهها مظلة من ورد تعكس ألوانها على وجهها ، وعلى ثغرها بسمة عذبة تنطوى على كآبة .

– يا ليست ! لقد مر على لقائنا الأول ستة أعوام ، هل تذكر ذلك ؟

إنه ليذكر ذلك اللقاء الذى فتح قلبه لأول مرة ، وإنها لتذكر تلك السويعات الجميلة التى كانت تجلس إليه فيها ، وهما يرتشفان كؤوس الهوى . وكانا فى مدرج الدار ، حيث كانت تتساقط أوراق الأشجار متناثرة ، تحت شعاع النور المنحدر إلى الغروب ، ولا تزال الريح تهب دافئة . فمشيا معاً ، كأنهما

يستحضران ذلك الماضي العابر بعد ما فرق بينهما الزمان، ليجعل من ليست فناناً عالمياً، ويجعل من كارولين زوجة رجل عادى...

تطامنت نداوة المساء ، وتركت الشمس على حواشى الأفق حمرة كالنجيع ، وجبال « البيرينه » الشامخة المسنونة أطرافها غارقة فى زرقة السماء .

كان على ليست أن يعود أدراجه من حيث أتى ، فتناول يدها المرتجفة ، يلثمها بخشوع ، وأقلته العجلة إلى مأواه فى غسق الليل ، وهو مشرد اللب ، غارق الجفن فى الدموع .

هذا حلم عبر ، ليخلفه حلم آخر . وما أكثر أحلام ليست فى حب إثر حب !

هنالك غانية — من الغوانى الهائمات به — جاورته ، والتصقت به زمناً . وتصف لنا مذكراتها لياليها الأخيرة معه . وما كان أشبه أخراها بأولاها :

انتهيا من طعام العشاء ، وكان ليست لا يزال يدخن لفافته فجلست بجانبه صامتة .

— إنك لفى ضجر الليلة . هلا قدتنى إلى مرقص !

— إلى أين ؟

– إلى أى مرقص من مراقص المدينة ... إلى القصر الأحمر ! إن فى قدمى شوقاً إلى الدوران .

– ولكن ... أليس بقاؤك هنا خيراً ، وأنت مزكومة الليلة ؟

– لا يا صاحبى ! هذه هى الحياة الحارة تشتعل فى صدرى . وأنا لا أفهم الحياة بدونها .

. . . .

إنها لمريضة ، وإن السل ليأكل حياتها ، لكنها تريد أن تخفى علتها ، وأن تذهل عنها . فلذلك راحت تزين العلة بثوب شعرى فنى . وبينما راحت الحياة تثور فى نفسها على أحكام القدر الجائر كانت كالمنهومة تريد أن تستنفد كل ملذات الحياة فى الجسد والروح قبل أن يدعوها داعى الردى .

وفجأة انطفأ فرحها ، وغلبت عليها الرعشة ، فوضعت شالها على صدرها ، والتفعت به ، وكأن غمرة من الوحشة انقضّت عليها ، فأخذت تتحدث عن أعوامها الأولى من شبابها ، وعن ذكرياتها المطوية ، فأطبقت على صدرها غمامة من الكآبة . فحاول ليست أن يسدل على هذا الماضى ستراً من النسيان ، فتلهى بالعزف قليلا ، فأخذت تستمع إليه ، وما كانت

معزوفته إلا نشيد حب يتعالى من قلبه ، حتى إذا انتهى من مقطوعته لفت رأسه إلى هذه المخلوقة الذاهلة الشاخصة فيه ، فلم ير إلا امرأة خاضعة مستسلمة !

لبث الاثنان فى حياتهما الجديدة ذاهلين عن كل شيء . أما هى فقد تناست عشاقها الأوائل . وأما هو فقد زهد فى انتصاراته الفنية ، وكانا على حال حسنة من الغنى تيسر لهما هذا النوع من الحياة . ولكن سرعان ما ضاقت بهما اليد ، فراحت العشيقة تبيع ما تملك من حليها شيئاً فشيئاً . ثم ساءت صحتها ، وأخذت تقترب من النهاية ، أما عيناها فقد خف لمعانهما ، وأخذت تحيط بهما هالة شاحبة . أما لون خديها فقد كان يزيد زهواً وحمرة ، وما هو بزهو الحياة ، ولكن للموت زهواً خداعاً ينذر ، ولا يبشر .

وغالباً ما كانت تخرج مع ليست ، وتتكىء على ذراعه . وما كان سوء صحتها ليزيدها إلا انطلاقاً وتشدداً فى طلب اللذة والحياة . وما عسى أن يصدفها عن ذلك ؟ وقد علمت أن النهاية معلومة محتومة . وألا حيلة تنجع فيما خطه القدر لها . فلتأخذ ما تستطيع من الحياة قبل أن تهرب ! ولتصطد من

ملذاتها ما تقدر عليه ، لأن غداً لا تعرف من أمره شيئاً ! فكانت تغشى نوادى الرقص واللهو ، فلا تفتأ تدور راقصة حتى تتلاشى عزيمتها ، كأنما تريد أن تستقبل الموت بعيدة عن الألم بثوب رقصتها .

جاءها ليست يوماً يقول لها :

– « يا حبيبتى ! ينبغى أن ترتبى حياتك . إن برد باريس يقتلك . أريد أن أسافر فى دورة إلى أواسط أوربا . وسأصل إلى تركيا بدعوة من سلطانها . إنه ينتظرنى . تعالى معى حيث نقضى شهر لذة على ضفاف البسفور . ما أشد زرقة السماء هناك ! وما أبهى الطبيعة عارية بجمالها ! وما أدفأ أشعة الشمس فيها !

تعالى معى ترتد لك القوة والحياة ! »

لم يأل ليست جهداً فى حمل محبوبته على مرافقته فى هذه الرحلة العجيبة إلى مفاتن الشرق . فهو يصف لها المنائر المتوهجة ، والمآذن الذاهبة فى السماء ، والقصور الفخمة وأبهاءها وأبوابها العاجية ، والحياة الإسلامية . وكانت هى تسمع الوصف مشدودهة يحملها لا شعورها إلى تلك العوالم ، وعيناها

مفتوحتان رانيتان كأنما تستمعان ، دون أن يثور فيها جنوح إلى الرحيل .

وفى ربيع سنة ١٨٤٦ ترك ليست پاريس ليقوم برحلته التى نواها ، وضرب لمحبوبته لقاء يكون لقاء الوداع . لكنه جاء وحده ، ولم تأت محبوبته إلى اللقاء لأنها كانت فى عالم الأموات.

° ° °

وبعد ذلك تأتى صحيفة مؤثرة فى حياة ليست ، كانت بطلتها الأميرة الروسية الجميلة « كارولين » . فقد لقيها للمرة الأولى حين عروجه على مدينة « كييف » ، ومذ رآها أحس أن هذه المرأة هى التى كان ينبغى للقدر أن يجعلها قرينته فى الأيام السالفة .

وحين أشرف على بهو منزلها ألفى امرأة ناضجة فى الثامنة والعشرين من عمرها ، قد تمطت على كرسى ممدود . ليست بالفائقة حسناً ، ولكنها ذات وجه جذاب على نحافة ، ولون أسمر ، وعينين نفاذتين ، وأنف أرعن ، وفم ليس بالمضموم ولا بالمنفرج . وبدلا من أن تمد يدها لزائرها كى يلثمها نهضت ووضعت يديها على كتفيه ، فرفع بصره إليها ، وقالت له .

– كم سرتنى زيارتك التى دلت على طيب قلبك ، ورقة ذوقك ! إننى أقول لك : إن هذا لا يعدل ما كلفت به نفسك من تعب . ولكنى جد سعيدة بمرآك . اجلس ! ... أتريد دخاناً ؟ أتريد شراباً ؟ أتريد ؟ صارحنى بما يسرك ! اجلس واتكىء هنا ! ...

وما إن استقرت بجانبه قليلا حتى وثبت فجأة :

– آه ! إننى مجنونة ، أو لستَ تريد خمراً ؟ لك شراب « البورتو » ... لك هذا كله . والآن ، حدثنى يا سيدى ليست ! إنك أعظم عبقرية أطلت على الأرض . إنك بيتهوفن الثانى ... إننى أتابع كل ما تؤلفه ، وتعزفه ...

تأثر ليست بهذه اللهجة الأخاذة الحية ، وهو الذى كان غالباً حين يستمع إلى مدائح الناس له ولعزفه ، يردد ما بينه وبين نفسه : إنهم يظنون أنهم يحسنون إلىّ ... ولكنهم فى الحق إنما يصفقون « لباخ » و « موزارت » و « بيتهوفن » و « شومان » . إن النقل ليس بشىء فى الفن . إنه ليس إلا فوز ساعة ثم يغور . أما الخلق والإبداع والخلود فهى رسالة الفنان الحقيقى .

لم يعرف ليست امرأة أغزر شعوراً ، ولا أثقب فكراً ، ولا أسرع مدخلا فى النفوس من هذه المرأة التى تشبثت بأحاسيسه فى الزورة الأولى . فكانت تنتقل بأحاديثها من أديب إلى أديب ، ومن فنان إلى فنان ، إلى جملة أحاديث تناولت الأدب والفن والشعر ، تلقيها بنبرة موسيقية ، وشخصية آسرة لامعة ، كأنها تستمد لمعتها من شعلة لا تخبو . وخلال ذلك أخذت سماتها النفسية تفرض تأثيرها على ليست فرضاً ، وإن كانت ملامح وجهها لا تسعف بذلك .

وأخيراً قالت له :

— يا سيد ليست ! إنك أبدع عبقرية عرفتها ولمستها . لا أريد لك أن تظهر فى المسارح والنوادى . وإنى لأدفع لك ما تريد من مال . ألا تقضى الصيف معى على أرضى ؟ سأجلب لك آلات العزف كلها . لا أحد يعكر عليك سكينتك . ستؤلف ، وتنظم ما شئت من سمفونيات . قل : نعم ! أرجوك أن تقبل توسلى وخضوعى . أقسم لى بالله على ذلك ...

ولم يجد ليست بدأ من أن يتقبل ويقسم . وكان قصر الأميرة من القصور الناطقة ببذخها وترفها ، فسرحا فى أفنائه

ذاهلَين لاهيَين ، مسترسلين فى حياة فنية بوهيمية . لا يجد الخيال أرقى منها حين يبدع الخيال . وإذا خرجا من القصر إلى الحقول نقلتهما عجلة فخمة . وانطلقت بهما كأنها انفلتت من أسر الطبيعة . وما كان ليخامر قلب ليست أروع من هذا الواقع الذى فاق الخيال . أما مؤلفاته فأصبحت ابنة الحاجة الفنية ، لا الحاجة المادية التى كانت تحثه كالمهماز يشك جانب الجواد . وإذا ما أتاه نصيب من المال وزعه للإعانات والصدقات . وظل الحبيبان فى روسيا طيلة الخريف والشتاء من ذلك العام .

كانت هذه الجميلة ابنة والد تلقت بواسطته على رغم قسوته أرفع جانب من ثقافة يتصورها الخيال . قضت فتوتها فى سهول أوكرانيا متسلية بركوب الصافنات مرة ، وآوية مرة إلى مكتبة ضمت الألوف من الكتب المرصوفة على غير نظام . قرأت كل شىء ، وتلقت ذاكرتها الخصبة كل شىء . وكثيراً ما كانت تغادر روسيا لتطوف فى أنحاء العواصم المختلفة ، فتطلع على وجوهها المتباينة ، وتزور أمها المطلقة ، فتجمع بين الحياة القروية البسيطة والحياة المدنية المعقدة ، وبذلك تتجاذبها عوامل

متضاربة ، وتغزوها ثقافات متنوعة ، وتجنح بها ميول شتى . فهى بين دارسة درساً شاقاً مجهداً ، ولاهية لهواً يعبث بقيمة الزمان !

هذا الكائن المجنح إلى كل ما يثيره الحس ، وإلى كل ما يبعثه الفكر ، يميل إلى سلطان الجسد ميله إلى سلطان الفكر . فهى تستطيع أن تظل أعواماً دون أن تهزها عاطفة ، وهى تقدر أن تجوع حتى لا يكفيها شىء من طعام الحس . وكأن هذا الكائن بما احتواه من هذه الصفات وافق من ليست هواه الفنى والعاطفى معاً .

ما بال ليست الذى أوتى قوة التأثير فى القلوب ينقاد إلى هذه المرأة التى لا تملك الفتوة الساحرة والجمال المغرى ؟ يجيب ليست على هذا السؤال فى أحد كتبه ، ويعطى صورة ناطقة لهذه المرأة : « فإذا هى امرأة يفتنك شحوبها ، وتسطع عيناها بلهيب عيون الحور ، وينطق جسدها بالفتن الخاطفة المتنقلة كالبرق ، وتسحرك بنغمات صوتها الذى يستذرف الدمع من حنايا مجهولة فى القلب ... ما أسهل عليها أن تسلى ! وما أسهل عليها أن تؤثر ! ضمت إليها الذكاء والثقافة ، وجمعت ما لا يمكن

أن يُرى . وأمسكت — فى لحظ بصرها — كل ما يمكن التنبؤ به. تحسن التصرف فيما تعرفه ، وتحسن — حين تريد — السكوت قليلا أو كثيراً ، غارقة فى اكتشاف الحالات حتى تريحها حالة ما ، أو تبرق كلمة على عينيها ، أو تنزل خاطرة منزل الرضا عندها ... »

حقًّا ، لقد أفاد ليست بصحبة هذه المرأة التى كان لها تأثير شديد فى تكوين ثقافته ، وتبلور عقله . وطالما نبهته من كسله إذا فكر فى القعود ، وطالما حملته إلى البيان ليؤلف ويعزف على مرأى منها ومسمع ، وهى تنفخ فيه من روحها قائلة له :

— هيا ! ألف ألحانك يا ليست ، واكشف القناع عن هذا الفنان المجهول !

على أن شيئاً واحدا كان يقدر أن يضع حدًّا لهذه الحياة الهائمة ، فإن معه دعوة إلى مسرح مدينة « فيمار » الجرمانية . ولكنها لم تحل بينه وبين الرحيل . وأوصته بقولها :

— يا ليست ! اجعل من نفسك رسول الجمال ! وصلّ لربك بإبداعك السعادة والتعزية للنفوس ! كن رسول الفنانين !

وهكذا استطاعت هذه المرأة بتأثيرها الروحى أن تكون نقطة

تحول فى نفسه بما أوحت إليه من فكر سام ، وعقيدة نبيلة لم يسبق له أن شعر بمثلهما .

– أجل ! سأفعل ذلك . إن غاية حياتنا هى المحبة . لقد آمنت بالحب من أجلك . وبدون هذا الحب لا أريد الأرض ، ولا السماء . فلنتبادل الحب – فى ظل الله – دون أن يستطيع الناس أن يفرقوا ما جمعهما الله إلى الأبد !

هذا هو الحب الجديد الذى أخذ بعنان ليست ، وهو جديد لأنه لم يبلغ حبٌ غيره ما بلغه .

• • •

هذه هى – ڤيمار – المدينة الجرمانية الطافحة بالذكريات ، حيث نشأ الشاعران غوتى وشيللر ، وكانت معبد فكرهما وشعرهما . وحولهما اجتمع كثيرون من رجال الأدب والفن ، حتى لكأن المدينة هى « أثينا » البلاد الشمالية .

أراد أن يخلق ليست من هذه المدينة مدينة للموسيقى ، وقد وفق إلى ذلك كثيراً . فكان رسول الموسيقى المحدثة ، يعتنقها كدين له . وكان ليست مخلصاً لفنه كالعابد الأمين . ولو أن الموسيقى اختارت لها رسولا لما اختارت سوى ليست . فلا شيء يضعف إيمانه بها ، ولا ليل يغلب شعلة محبته لها ، لأنها شعلة مقدسة كلما ضربتها الريح ارتفعت ذوائبها فى السماء . ولقد أحيا آثار من تقدموه من المعلمين ، كما أنه اكتشف عبقريات كثيرة كانت فقيرة إلى من يجلوها ويشجعها . وها هو ذا رب الموسيقى الحديثة « ڤاجنير » لم يكن إلا غرس يده ، ولو لم يمده ليست بالقوة المادية والمعنوية لما أتاح القدر لهذا الرجل

المقطوع أن يلد شيئاً فى الموسيقى .

وما كان لليست ذى القلب المتلهب أن يتراخى فى حب أميرته « كارولين » التى هجرت بيتها ووطنها ، واتبعت ظل فاتنها العبقرى . وفى عشهما اجتمعت معازف النبغاء التى اهتزت بأنبل العواطف تحت أناملهم . فكانت إحدى حجرات لبيتهوفن ، والأخرى لموزارت ، وغيرهما للدرس والتأليف . وحين طبع ليست سمفونياته سطر كفاتحة لها هذه الكلمة :

« إلى التى أكملت إيمانى بالحب
وأنمت رجائى خلال الألم ،
وعلمتنى السعادة بالتضحية
إلى التى تظل رفيقة حياتى
ومصباح فكرى ، وصلاتى الحية ، وسماء نفسى ...
إلى كارولين . »

ولم تكن الرسالات بين الحبيبين – فى أثناء الانفصال – لتنقطع ، وإنما كانت مراسلتهما قصيدة حب متصلة ، وهو الذى كتب من فيمار إليها : « فى ١٢ كانون الثانى (يناير) سنة ١٨٥١ الساعة الثامنة مساء .

« هاأناذا فى هذه الغرفة ، على هذا المكتب ، أجلس قريباً من هذه النوافذ التى رأيتك منها كثيراً . كل الأمتعة التى تحيط بى إنما هى أنفاس عنك تحدثنى بلغة ما أفصحها وما أحزنها ! وهذه الجدران تتمتع بما لا أدركه من سلام صارم ، كأنه سكون ، أو بسمة محسنة أعرتِها أنت إياها . »

وفى مرة ثانية ، حين ألفى نفسه منعزلا بعيداً عنها كتب إليها : « فى الساعة الثالثة ، من هذا الصباح دخلت غرفتك ، فحدثنى كل شىء فيها عنك ، وترنم بذكرك . إن ذكرياتنا لترقرق على البحيرات والجبال . أنت قسمتى الوحيدة ، ومجدى ، وكنزى ، وهدوء حياتى »

ومن حق الأيام أن تهيىء لها هذا الحق السعيد ، بما كانت تنعم به هذه الحليلة من جمال ومال . فجاءته تاركة زوجها تشغله عنها شواغل الحياة والصيد واللهو ، واجدة فى قيمار الجو الذى يلائم روحها وطموحها ، والقلب الذى يتغنى بها ، ويتعالى بها .

« لحبك — يا كارولين — وغبطتك سأبدع كل جميل وجديد . أصوات قلبى كلها ستردد أغنية الحب التى تحلمين بها . سأبقى بجانبك حتى يتخطفنى الموت . أنت حريتى السامية ،

وما تبقى إن هو إلا تدجيل وعبودية . سينفجر قلبانا بينابيع الحياة الخالدة . »

• • •

ولكن ما كل ما تردده الشفاه تسجله الحياة ، فسرعان ما دعا ليست داعى السفر إلى پاريس ، وفى پاريس أفلاذ كبده ، وذكريات فؤاده . وعرج فى أثناء عودته على « زوريخ » حيث كان ڤاجنير .

ها هو ذا ڤاجنير ينتظر لقاءه منذ الساعة السابعة صباحاً ، وهاهما يلتقيان ، ويشهقان فرحاً لهذا اللقاء . إن ڤاجنير يبكى ويضحك ، وإنه لزوبعة من الفرح . وليست يميل إليه على قبحه ودمامة مظهره ، فيصحبه ڤاجنير إلى مسكنه ، وهو مسكن وضيع فيه أثاث بسيط ، وفيه زوجة ڤاجنير التى أخذت تتولى خدمة الاثنين بنفسها . وكان ڤاجنير لا يصدق نفسه بهذا اللقاء : وإنه ليثب فرحاً ، ويعانق ضيفه مرة ، ويخاطب كلبه مرة . وكان يعزف حيناً ، ويغنى حيناً بحنجرته الرنانة . وقد يختلط غناؤهما مرة معاً . حقاً ، إنها لحظة رائعة تسجل كيف يكون لقاء الفنانين !

جعلوا باريس وجهتهم بعد أن انضمت الأميرة إليهم ، ونزلوا جميعاً فى « نزل الأمراء » . والتقى ليست بأولاده ، وما كان أشد تأثره بهذا اللقاء ، والتقى بأمه بعد يأس من لقائه ، فنعموا حيناً من الزمن باجتماع الشمل ، حتى أهاب بليست داعى الرحيل مرة ثانية إلى العواصم الشهيرة .

لقد كان ليست كثير التعلق ببناته ، على الرغم من أنه يحيا معهن حياة منفصلة . ولكن متى انطفأت عاطفة الأبوة فى الصدر ؟ فهو يكتب إليهن من كل مكان ينزل فيه ، وهن يكتبن إليه حيث يتوجه . وهو لا يفتأ يوصيهن بطهارة النفس ، وعفة الضمير ، ويحثهن على إتقان العمل البيتى ، لأن المرأة لا تكمل إلا ببيتها .

أما الأم فلم تكن لتطيب نفساً بهذا التودد ، وهذا التقرب ، لأن نار الغيرة من هذه الخليلة المستبدة تأكل قلبها . فهى تريد إذلالها ، وتريد أن تقصى بناتها عن والدهن لسلوكه الشاذ . وقد كتبت إليهن من « لاهاى » هذا الكتاب القاسى ، وكله تقريع بهذا الوالد الذى هجر بيته ، وهذه الأميرة الخليلة التى تتولى أمر هذا البيت ، وتنعى عليهن أن يأكلن رغيفاً تقدمه

امرأة غريبة لم تكن ، ولن تكون ، يوماً زوجة لأبيهن . وهي تريد لهن أن يحفظن شرفهن ، وتؤثر لهن أن يعملن بأيديهن ، ويقفن على الطرق سائلات على أن يرضين بهذه الحياة المفعمة خزياً وعاراً .

« قولى لأبيك يا بلاندين ! إن كبر نفسك يحملك على أن تخدمى دون أن ترضى بالبقاء عند هذه المرأة الغريبة ، وإنك تأبين الحياة المترفة قائمة على غير شرف .

هذا حالكن عندى . أما حالى فقد وكلتُ أمرى إلى الله . إنكن لى ، وأنا لكن ، شئتن أم أبيتن .

آه يا بناتى الشامخات رأساً ، عشن فى شموخكن دائماً ! انى سأحملكن بذراعى إلى منابت السنديان الهرم حيث كان يحلم ديكارت ، وإلى الشواطىء القائمة على هذا الأوقيانوس المترامى . إننى لن أخشى هذا الامتداد ، ولا هذه اللانهاية ، لأننى أشعر دائماً بأنكن معى ... »

على أن هذه الكتابة المؤثرة لم تكن لتبرر موقف هذه الأم التى وكلت أمر الاعتناء بشئون أولادها إلى الوالد ، وهى لا تفكر فى الحياة إلا فى شئون زينتها وحليها ، دون أن يقلقها شأن من

شئون أولادها ، فى حين كانت الحليلة الغريبة تعنى بهن . وتعمل على رعايتهن كأم كريمة العاطفة . وقد كان ليست يطلع على حملاتها ، فلا يقابلها إلا بالهزء ، لأنه قد أرضى فى اعتقاده وجدانه ، وقام بما يفرضه عليه واجبه الأبوى والأدبى .

مرّ على ليست دور سعيد فى حياته ، عرف فيه السكينة ، ونعمة الطمأنينة ، حين كان يجلس بين بناته ، يعزف لهن من مقاطيعه الساحرة ، ويبث فيهن روحاً عالية من السمو الفنى ، وقد تفتحت فى نفوسهن غرائز الحياة . أما كوسيما التى طالما أذهلها ڤاجنر وفتنها بمظاهر نبوغه ، ومنعها عنه أنه مقيد بزوجة ، فقد جاءها حظها ليربطها برئيس فرقة موسيقية هو « هانس دى بيلوف » الرجل المضطرب الذى كان يشعر بميل خفى إلى رفيقة تواسيه فى حياته وهو لا يجد هذا الرفيق . وفجأة قاده القدر إلى ابنة ليست كوسيما التى قبلت به فى النهاية رفيقاً !

• • •

وإذا استرسل الفتى فى أحلامه ، وخال أن الدهر صفا له ، وأن الأيام سقته الكأس الصافية تبدلت الكأس الصافية بكأس تطوف الأكدار فى قرارتها . ولا بد أن يجرع الفتى ، لأنه محمول على ما يشرب . فإذا بليست يفجع بولده البكر « دانيال » فى مقتبل الشباب ، فتك به السل دون أن يقدر الطب على استنقاذه ، فكان موته ضربة لأمانى الأب ، بات لها ذاهلا ، غارقاً فى وحشة لا نهاية لها . وعقبت الأيام على فاجعته بحادثة طلاق خليلته كارولين من زوجها ، وانفصالها عنه ريثما تتم مراسيم الطلاق . فإذا بليست ذلك الفتى الذى كان مرمى عيون الغوانى ، يرشقنه بالورد ، ويحملن إليه القبلات على الشفاه طائرة ، بلغ الآن الخمسين من العمر ، وأصابه ما يصيب ابن الخمسين ، فابيض شعره الفاحم ، واعوجت قناته المستقيمة ، وانخفض ناظره المحلق ، واحترقت جوانب معدته بالكحول . إن هذه الأسباب كلها هى نذر الكهولة التى لا محيد عنها . وكأن

هذه النذر أيقظت فى نفسه الروح الدينية القديمة التى خالجت نفسه فى السابعة عشرة من عمره ، حين راح يتوسل إلى أبيه أن يدرجه فى حياة الرهبان النساك . وكأن بلوغه هذا العمر حمله على هذا الاعتراف :

« إن كل ما فكرت فيه من خير منذ اثنى عشر عاماً يعود فضله إلى المرأة التى أقدر أن أدعوها الزوجة الرفيقة . إننى لا أقدر أن أخط اسمها دون رجفة تعرونى . إن أفراحى انحدرت عنها ، وآلامى كلها احتملها من أجل راحة نفسها . إنها رضيت بأن تشركنى فى حياتى وعملى ، وآمالى وآلامى .

كم من شدة استطاعت أن تخفف وطأتها على برقتها ! وكم كانت تحمل كلماتها المعزية الشجاعة والجلد إلى نفسى ! بل إنها كانت تندفع بكرم طبيعتها إلى مقاسمتى أعباء الحياة ، دون أن تمن علىّ بنشبها وزخرف حياتها .

إننى مدين بما فى نفسى من خير إلى كارولين فهى التى رعت نفسى ، وصانت مالى ، ووضعت لحياتى مقاييس مترفة . وإننى دعوتها إلى رعاية ما أملك بعد موتى ، وتقسيمه تقسيما عادلا بين ابنتى : بلاندين ، وكوسيما .

ووصيتى الأخيرة أن أدفن ببساطة دون شهادة أحد . وما أفضل الليل شهيداً على رمسى ! »

ليس هذا باعتراف ، وإنما هو وصية أوحت بها إليه نذر الكهولة . على أن كارولين كانت لا تزال تحيا معه خليلة غير شرعية . فكان يؤلمه هذا الوضع ، ويتمنى أن تسنح له الفرصة فى تثبيت العلائق وجعلها شرعية . ولكن عوائق عسيرة يضعها القدر كل مرة كانت تحول دون تحقيق هذه الغاية . ولكن ما همه أن يعترف له المجتمع بذلك الحق أو لا يعترف ما دامت كارولين له .

لا بد للحوادث أن تتوالى على هذا القلب الحساس ، فلا تغادره لحظة حتى تغزوه بأشد وأدهى . فتلك ابنته بلاندين التى كانت جميلة ، آية فى ذكائها وثقافتها أصبحت زوجة ، وأنجبت صغيراً كان ريحانة جده . ولكن الصغير لم يلبث أن غادر الحياة غير تارك إلا حسرة فى النفس ، وحملت صغيراً آخر طالما ذهلت به ، ووصفته لجده وصفاً يدل على مبلغ ما تصل إليه عاطفة الأمومة فى الصدر . ولكن هذا الوضع الثانى قضى فى هذه المرة على حياة الأم وهى فى مقتبل الشباب .

لقد فاجأ النبأ ليست وهو فى روما ، فزعزع بقايا أمله ، وهدّ ما ظل متماسكاً منه ، فضاق بالحياة ذرعاً ، وغدت القيم الفلسفية عنده سفسطات باطلة أمام هذه الحفرة المجهولة التى انفغرت ثانية لتلتقف كائناً عزيزاً .

غادر بيته ولجأ إلى دير قريب من المدينة طمعاً فى السلوان ، فكان لا يؤنسه من الأصوات إلا قرع النواقيس ، وقد زاره كثيرون من الرهبان والقسيسين مستأنسين بهذا الناسك الجديد .

وقد حدثه أحدهم أكثر من مرة فى شأن علائقه مع خليلته ، فأجاب :

– إن أرواحنا قد اجتمعت . أو ليس هذا القران ملائماً لرغبة السماء ؟ إن الأميرة لذات روح مطهرة ، وإرادتها قد تمازجت مع إرادتى ، وصلواتنا اتحدت معاً فى عروجها إلى السماء .

أما حياته فكانت رتيبة متشابهة ، وكان لا يعزيه فى هذا المجهل المنعزل إلا تأمله الصامت المتواصل ، أو تأليف الموسيقى الدينية ، حيث أبدع خير القطع فى ذلك . أما نبأ اعتزاله ونسكه فقد كان ذا وقع مختلف على أفئدة الناس فى أوربا .

فمنهم من قال : إنه نوع جديد من الدعاية ، ومن قائل : لا نصدق أن مثل هذا يغدو زاهداً . ومن محب يقول أسفاً :

– لقد فجعنا فى العبقرية !

أما الأميرة فقد اعتزلت العالم أيضاً بدورها ، وانصرفت إلى ملء فراغها بالمطالعة المتنوعة ، والتدخين المتواصل . وبدأت تتراءى لها أشباح تمثلها لها مخيلتها ، فى حين راح ليست عاكفاً على عبقريته المبدعة ، يجاور بابه ندوة المصور « رافائيل » ولا تبعد عنه قبة « ميشيل أنج » المبدع . كأنما التصوير يريد أن يعانق الموسيقى . وحقاً لقد آتى هذا التجاور أكله . فإن الصفحات التى كتبها هنالك ليست كانت من الصفحات الرائعات .

لقد رأينا ابنته كوسيما تقترن بهانس دى بيلوف أحد طلاب أبيها . لكن هذا الطالب ما كان ليملأ عينيها بوجهه القبيح ومعالمه البشعة ، وطبيعته القلقة المريضة . وهى التى أولعت زمناً بڤاجنر للنظرة الأولى .

زارها ڤاجنر فى بيتها ، بعد أن تقلب عليه الزمن ، وأعطاه حظاً غير ضئيل من الشهرة والنبوغ . فكانت هذه الزورة

مصدر مفاجأة غريبة لكلا القلبين . أما هى فقد رأت أن صفحة من الماضى الجميل تفتحت ، وأما هو فقد رأى فيها غادة جديدة جميلة ، متفتحة العقل ، خصبة الخيال . ففتح هذا اللقاء لهما أفقاً جديداً من الحب ، يزيد الفن من ألوانه وظلاله . وإذا بهذا اللقاء ينمى فيهما هوى مبرحاً لا يقدران بعده أن ينفصلا ... وهيهات لهذا الحب – مهما عملا على كتمانه – إلا أن تظهر أسراره ! وهيهات لذلك الزوج المسكين – مهما استطالت غباوته – إلا أن يطلع على هذه الخيانة متمثلة فى زوجته ! فكانت الخيانة ضربة عنيفة لآماله وهو الذى يحيا بدون أمل ! زوجة وضع فيها ثقته وأمله تنقض الآن هذه الثقة ، وصديق طالما أحبه وأكرم فيه نبوغه يطعن صديقه فى أعز العلائق ! فليتألم الآن ! لأن الحياة أفقدته الزوجة والصديق ، وماذا فى الحياة بعد ذهاب الزوجة والصديق ؟ !

راح إلى ليست يشكو له أمر ابنته ، ويطلب رأيه الحازم فى الحادث .

– يا معلمى ! إننى بائس يائس ... ما عساى أصنع ؟ ليس من الحق أن أخاصم صديقى ڤاجنر ذا الآثار الرائعة .

إن ابنتك آثرته على ... لا أطيق هذا .

وكانت دموعه المسفوحة تتمم ما يعجز لسانه عن بيانه . فعمل ليست على تهدئة نفسه ، والتخفيف من حدة ألمه . لكن هانس دى بيلوف كان يدرك أن تأثير ڤاجنر فى نفس كوسيما هو أبعد من أن يقفه شيء . لأنه تأثير الجو الفنى الذى يعبث بالألباب ، ويهز النفوس . فلم يكن له بعد هذه الخيبة إلا دمعات يذرفها ، وكلمات من ليست تزيده أملا بعودة زوجته الهاربة إليه . ولكن قد جمعها وڤاجنر الفن وجماله فلا يمكن لشيء أن يفرقهما .

لم يقم ليست فى مطرح واحد ، فقد كان ينتقل بين ڤيمار وروما بثوبه الأسود الكهنوتى ، حيث طلابه يستقبلونه بحماسة فى كل مكان ، وهو — بالرغم من بلوغه الخمسين — ظل ذا تأثير عجيب يستهوى النساء ، فيسحرهن ، ويجتذبهن ، وكان المعجبون بفنه يتهافتون على ڤيمار من كل صوب ، كأنهم وفود الحجيج إلى المواسم . وقد ظلت نفسه الحية — التى أبت أن تعترف بفوارق الزمان — تميل إلى الحياة المترفة والجمال أنى كان . على أن وجهه طفقت تجاعيد الهرم ترتسم فيه لتظهره

قاسياً ، وأخذ الشيب يدب إلى فوديه الفاحمين . ولكن عينيه العميقتين ظلتا على بريقهما الخاطف المؤثر . لكن لشد ما تستحيل صرامة وجهه إلى رقة ناعمة حين يجلس إلى امرأة !

• • •

فى سنة ١٨٧٢ طلقت كوسيما زوجها لتقترن بفتى أحلامها ڤاجنير ولم يسع ليست إلا أن يوافق على هذا القران . وهو الذى كان يكرمه ويشيد بمستقبله وعبقريته . ومنذ هذا العام نفسه لم يبق بين ليست ومحبوبته الأميرة إلا محبة أخوية صافية طهرتها الأحداث . فكان يأتى روما ، ويزورها ليستمتعا بالنشوة الفنية العطرة ، وبعد هذه الزيارات المتتالية طبع على جبينها قبلة الصداقة ، واعتزل فى دير « فرانسيسكا رومانا » حيث اتخذه له مثوى .

هذا الفنان الذى انصب عليه المال هو فقير الآن . لقد وهب كل ما عنده ، وماذا عساه يريد من خيرات الأرض ؟ كل ما راح يكسبه كان يقدمه صدقات .

لقد كانت نهاية حياته خالصة نقية ساكنة . إنه عاش للخير والجمال المطلق . وإذا هو منح حياته وحماسته رجال العقل والفن فإنه منح — بدوره أيضاً — محبته الأشقياء والتعساء ، وإذا

ما ركبته خطيئة اللحم والدم يوماً فإنه لم يرم يوماً إلى رذيلة ، وإنما اتخذ الحب مطية إلهام لآثاره الحية التى يخلدها الفن .

قد استماله من الحياة الطريقة الرومانية وهو فى نسكه وزهده ، فكان يطلب الظل الرقيق بين الحدائق الناعسة ، والتماثيل القديمة ، والنوافير التى تقذف بالفضة البيضاء سائلة كالسبائك ، أو الحبات من اللؤلؤ بين الأزهار والورود . ولعل هذا النوع من الحياة الصافية المطمئنة كان يلائم هذا المزاج الصافى الذى خلص من أدران الدنيا وخبثها الماضى ليتسنى له أن يعيش عيشة راضية .

ومن بعد هذا الصفاء كانت النهاية تقترب رويداً رويداً . ففى ڤيار وهو يعرج على سلم زلت به قدمه ، فسقط ، فاحتملوه إلى سريره ، فأقام ريثما عاوده الشفاء ، لكن حادثة أخرى تتالت عليه أقعدته ، وما أكثر الحوادث على عجلة الإنسان حين يشيخ !

ها هو ذا قد بردت أطرافه الحارة ، وتلاشت حمية دمه ، فكان يطلب النار للدفء حتى أيام الصيف ، وتبدلت ملامحه ،

وتوارى ذلك الشخص الفنى ليحل محله شخص منهوك القوى ، خائر العزيمة ، ليس فى جسمه إلا شبح ناحل ! أخذه العجز حتى عن القراءة ، وكان يشعر باقتراب النهاية . ولكن السنديانة الجبارة تأبى أن تلين . فكان يتحامل على نفسه ليوهم أنه لا يزال يتقبل الحياة .

وفى حزيران (يونية) سنة ١٨٨٦ آنس فى نفبسه قدرة على الذهاب من ڤيمار إلى « بايروت » حيث كان بيت ابنته - كوسيما - منذ فقدت زوجها ڤاجنبر . وصل إلى البيت برغم ضعف جسده الذى يرزح تحت أثقال أربعة وسبعين عاماً . فارتمت عليه ابنته مجهشة فى البكاء .

- ها أنت ذا أخيراً قد أتيت ... لقد مر على موته ثلاثة أعوام . وأنا غارقة فى الحزن والحداد . إن قدومك هذا هو فرحى الأول .

نزل ليست عند ابنته ، وكان يطمح - على رغم كبره وعجزه - إلى زيارة كل مطرح فى القرية ، وابنته تتوسل إليه أن يلزم الراحة . وفى أثناء عودته من إحدى زياراته ألقى نفسه فى منزل أقام فيه عاشقان ، وكأنما آلمهما مشهد هذا الكاهن الشيخ

يبيت معهما ، لأنه يكدر عليهما خلوة حبهما وهناءهما . ولكن ليست الشيخ تظاهر بالرقاد والتعب الملح ، فاضطجعا — غير بعيدين عنه — يتساقيان كؤوس الهوى بصمت ونعيم . ولكن ليالى الصيف الثقيلة الحارة ضايقتهما ، ففتحا نوافذ الحجرة ، فأصابت الريح الباردة جسد ليست الضعيف الهش ، واحتمل البرد مرغماً حتى لا يزعج هذين العاشقين فى عشهما ، وهو الذى يعرف طعم العشق ، ولذاذة الهوى فى الشباب . لكن رعشة البرد هزت جسده . وما إن بلغ مأمنه فى « بايروت » حتى علقت بجسمه حمى شديدة ألقته طريحاً . إنه يريد أن يشاهد أوبرا « تريستان وايزولد » من تلحين ڤاجنير . لكن هذه الحمى ألزمته فراشه ، وكان كلما صحا من غفوته طلب أن يستمع إلى هذه الأوبرا .

عاده الأطباء ، وألفوا أن لا رجاء فى شفائه ، فسألته ابنته :

— أبتاه ! هل تريد أحداً يسليك .

وهى تريد كاهناً يعترف إليه قبل تسليم الروح . لكن ليست رد على سؤالها بصرامة وحزم .

— لا . لا . لا أريد أحداً !

فاه بهذه الكلمة ، ورددها ، ثم رددها . وفجأة تدحرج على السرير كتلة واحدة ، أخرجت منها آخر نفس لهذا الفنان العظيم .

حقاً إنها نهاية عظيمة لعبقرى عظيم .

خاتمة !

هذه هى قصة حياة هذا الموسيقى النابغة بكل ما للقصة من حياة ! وهى أجدر بأن تكون قصة حياة إنسان قبل أن تكون قصة حياة فنان . على أن الفنان لا بد له من حوادث تطرق حياته ، وتعمل على تكوينه وتوجيهه فى الطريق الذى تختاره له . فهو حين يسلك طريقه إلى مشارف الخلود والعظمة يجتاز مهاوى كثيرة من الخيبة والانحطاط ، يزلق فيها كثيراً ، وينتفض منها كثيراً . وكثيراً ما جادت الأشواك بنفسها لإبداع وردة تهتز عليها ، وكثيراً ما تمخضت الأخلاق المريضة بخلق نفس كريمة . وكثيراً ما كانت منابت الروح الطيب من منابت الرجس وأهواء اللحم والدم !

وليست حياة الفنان بصفحة نقية بيضاء ، لا نجد فيها إلا سطور العلاء . وإن أردنا أن نتمثلها هذا التمثل فلنقل إذاً : ما أفرغها صفحة خالية من الحياة !

لأن الحياة الصادقة بمجموعها إنما هى متناقضات متفاعلة ،

وصراع باطنى أزلى فى عوالم النفس التى لا تتعدد . وحياة العظيم إنما هى خلاصة هذا التفاعل الشديد فى داخل النفس التى يجذبها مرة ميلها الغلاب إلى التعلق بالحياة الواقعية ، فتأكل كما يأكل الناس ، وتحس كما يحس الناس . ومرة يجذبها حب التسامى الذى يريد أن يفردها عن الناس ويعمل على تنقيتها ومسح جوانبها حتى تكون نفساً إنسانية وغير إنسانية .

ولعل حياة هذا الموسيقى — بما رافقها من قلق واطمئنان ، وشك وإيمان ، والتفات إلى عالم الروح حيناً ، وانغماس فى عالم المادة حيناً ، حتى ليكون صاحبها من نفسه بين عالمين منفصلين ، منشقين ، لا يدرى الواحد بالآخر — لعل هذه الحياة هى خير مثل للحياة الفنية التى تعتلج فى صدر كل عظيم فنان ، إذ لا تتسم حياة العظيم بالهدوء والاستقرار ، وإنما أبرز ما تتسم به هو هذا الصراع الخفى المتواصل فى بواطن نفسه . ولن يزال هذا الصراع عاملا فى نفسه حتى ينجلى : عن أى عالم يستبد به ، ويميل إليه ؟

وفى قصة « ليست » شاهد عدل على هذه الحياة ، لأن تاريخ الفن لا يعرف حياة فنية زخرت بمتباين الأهواء ، وطغت

بمختلف الميول كمثل هذه الحياة العجيبة ، فصاحبها يهيم فى الموسيقى ، ومن ورائها أشياء تفرض نفسها على محبها . من هذه الأشياء المرأة التى تحيل رجل الفن والموسيقى ، وتصهر عاطفتها فيه ، لأنه عابد فى محاريب بيتها . ولكن إلى أى مدى تسمح بنفسها وتجود بحبها ؟

حتى إذا أيقن ليست أنه اجترح باسم الفن خطايا لحمية دموية غلب عليه نداء آخر عميق ، هو نداء الفن المحض الذى يلبس لباس الدين والتقوى ، وراح يزهد فى الدنيا ولذاذاتها ويعاف الفن نفسه — وإن كان الفن وسيلة إلى الجمال المطلق .

ولا ريب أن هذا التردد إذا تمكن من النفس عصف بها ، وعبث بأهوائها ، وكان سبباً من أسباب يقظتها وخمولها ، ورفعتها وانحطاطها ، وألمها ولذاتها ، لأن الحياة المتحركة ذاتها نعمة مخلدة . ذهب ليست ضحية هذا التردد ، وجعل من حياته كلها مسرحاً تتعانق فيه المتناقضات من حياته وفنه وبيته ، حتى إذا ما انتهى دوره أو كاد ينتهى وجد المثل الأعلى الفنى الذى كان يعبده ويقصده ويسيطر عليه ، ويجد — ولات حين أوان — أن المرأة التى أحبها بروحها ، وهصرها بلحمها ودمها

لم تكن إلا وسيلة لتركيز الجمال المطلق الذى يصير إليه ، وتشرق نفسه به . فحبه قد يعبق برائحة الجسد ، وهواه يتأجج بحرارة الدم . لكنه — إلى ذلك — لم يدنس أبداً روحه الصافية ، لأن ذلك كله لم يكن منه إلا كالثياب المستعارة يرتديها وينزعها . أما الجوهر فهو باق على صفائه دائماً ، لأن الله الذى ضيعه بالفن صغيراً رده إليه الفن كبيراً .

أوليست حياة الفنان بعد ذلك هى قبل كل شىء حياة الإنسان ، تتردد بين خطيئة وتوبة ، وتتناوب بين انحطاط وسمو ، حتى تعود نقية كما جاءت نقية .

ألا تباركتْ يد الفن ، لأنها تجرح وتأسو ، وتجعل من الطين الحقير روحاً مجنحاً !

المصادر :

١ عدد خاص من المجلة الموسيقية بحياة ليست
٢ رسائل مسافر – لجورج صاند
٣ مراسلات ليست ومدام أجولت
٤ مراسلات ليست مع ابنته
٥ ليست وأولاده – لروبير بورى
٦ ليست – جودى بورتاليس
٧ ليست مع العشاق الرومانتيقيين لبول ريبو
٨ تاريخ الموسيقى العالمية – طبعة لاروس
٩ تاريخ الموسيقى – لكومباريو
١٠ حياة شوبان – ليست

مكتبة الأطفال

للأستاذ كامل كيلانى

مجموعة نفيسة تحتوى على أكثر من أربعين
كتاباً مصوراً . وقد فازت بإعجاب رجال
التربية والتعليم وبرضى الجمهور واستحسانه
فى جميع البلاد العربية .

دار المعارف بمصر

المكتبة الحديثة للأطفال

للأستاذ محمد عطية الإبراشى

مجموعة قصص عذبة اللغة

جميلة التصوير

روعيت فيها ميول الأطفال

وأحدث النظريات

فى التربية

وعلم النفس

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو
المتعة والثقافة وسمو النفس .

الكتب التى ظهرت :

١	عمرون شاه	تأليف
٢	مملكة السحر	للكاتب الفرنسى شارل بيرو
٣	كريم الدين البغدادى	تأليف
٤	آلة الزمان	عن الكاتب الإنجليزى ﻫ. ج. ويلز
٥	الأمير والفقير	عن الكاتب الأمريكى مارك توين
٦	كتاب الأدغال	للكاتب الإنجليزى رديارد كبلنج

ثمن الكتاب ١٠ قروش

تصدرها
دار المعارف بمصر
بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك



دار المعارف بمصر

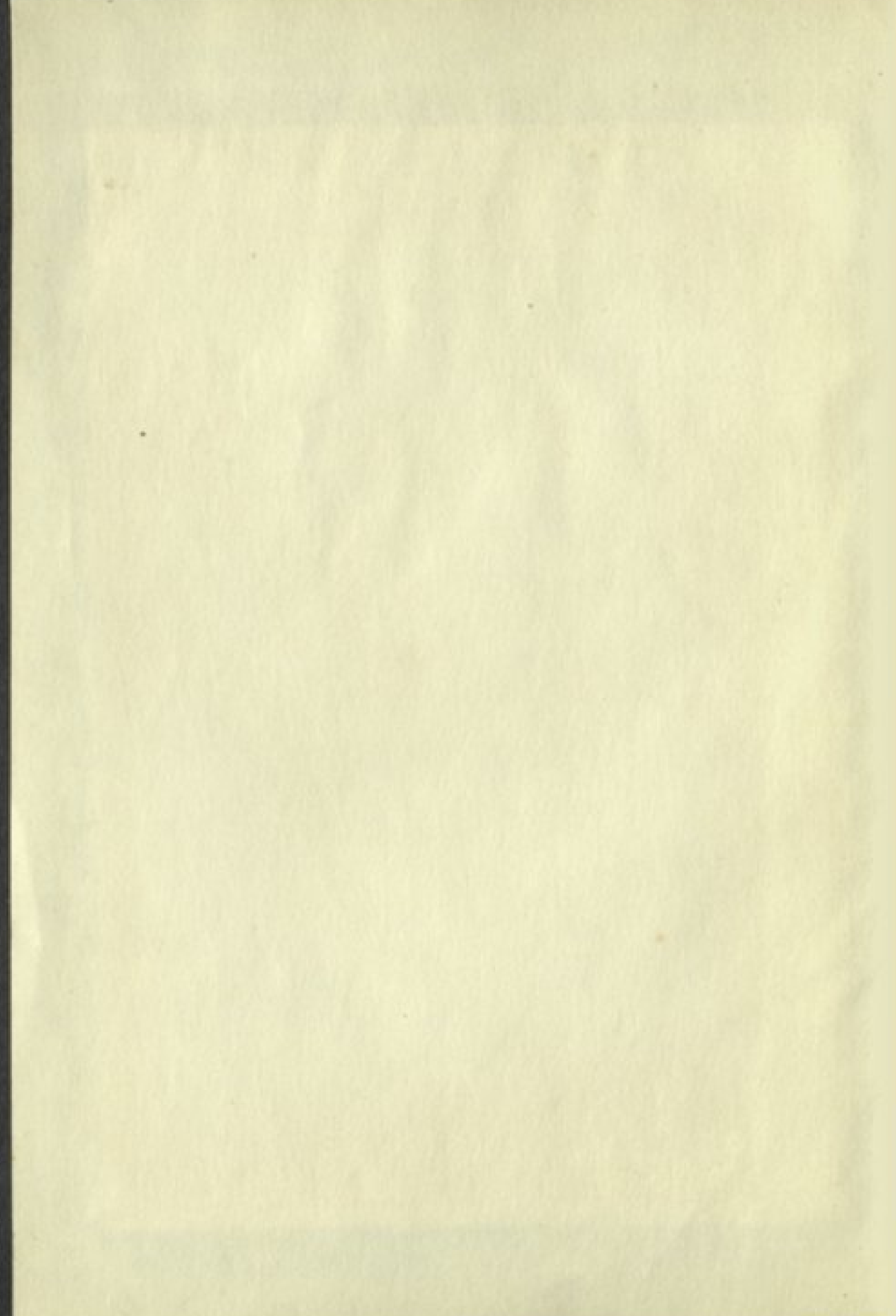
أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

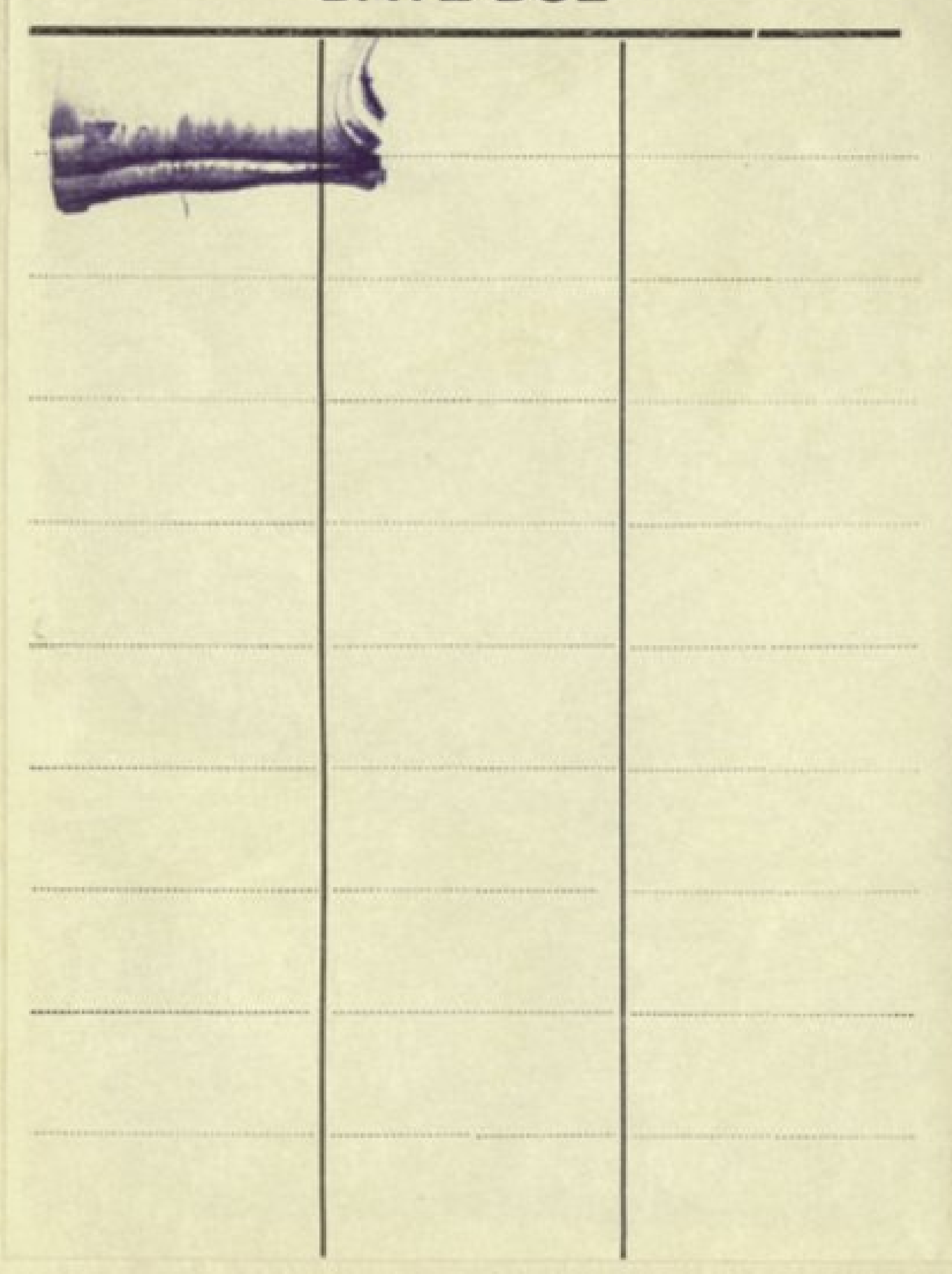
يسرها أن تعلن جمهور المؤلفين أنها نزولا
على رغبة غير واحد من أصدقائها الكتاب
قد أنشأت قسما تجاريًّا يتولى طبع المؤلفات
على نفقة أصحابها بأسعار مناسبة مع مراعاة
ما أثر عن « دار المعارف » من إخراج
تتوافر فية العناية والإتقان والفن الجميل

القاهرة :
٧٠ شارع الفجالة

الإسكندرية :
٢ ميدان محمد على

س. ت ٥٢١٢١





DATE DUE